الشيب والشباب

في

"الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري للآمدي ٣٧٠هـ"

دراسة بلاغية نقدية

د. أسماء السيد السيد شعبان

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية

جامعة الأزهر

Scanned with CamScanner

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين وأفصح الخلق أجمعين.

وبعد،، ،،

فإن كتاب « الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى »[١]، لأبى القاسم الحسن ابن بشر الآمدى، من الكتب الموسوعية التى غنيت بالنقد والبلاغة منذ ٣٥٠هـ، فهو المدرسة والمرجع الأم، ولهذا فقد وقف شامخا كالطود متحديا كالدهر لا يشق له غبار، وحسبه من قوة الحجة وجلال الحكم وغزارة المحتوى.. .. وقد قصر الموازنة على معانى الشاعرين فى الابتداءات والوسط، وقسم هذه المعانى كما هو مطبوع بتحقيق السيد أحمد صقر إلى أكثر من اثنين وثمانين نوعا [٢].

ومن هنا فقد وقع اختيارى على باب « الشيب والشباب»[٣]، من كتاب الموازنة .

ولحديث الشيب والشباب مكان مهم فى القصيدة العربية الموروثة فمنه ينطلق الشاعر للتعبير عن وجدانه.

وأبو تمام والبحترى من أكثر شعرائنا الأقدمين ولوعا بمطارحات الشيب والشباب وترديد هذه الأحاديث فى شعرهما فى لوحات تعبيرية

---

(١) أبو تمام هو: حبيب بن أوس بن الحرث بن قيس (وهو طيء) وقد توفى بالموصل عام ٢٣٢هـ أو ٢٣٣هـ.

البحترى هو: أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى وهو طيء ولد سنة ٢٠٦هـ، وتوفى عام ٢٨٤هـ، ينظر: نقد الموازنة/٢٩، ٥٣، ٥٤، د/ محمد رشاد صالح.

(٢) نقد الموازنة/ ٩٠.

(٣) شيب: الشَّيْبُ معروف قليله وكثيرة، بياض الشعر والمشَّيبُ مثله، وربما سمى الشعر نفسه شيبا - شَابَ يَشيبُ شيبا ومشيبا وشيبة، وهو أشيب على غير قياس.. يقال: رجل أشيب ولا يقال امرأة شيباء، ولا تنعت به المرأة، اكتفوا بالشمطاء عن الشيباء، وقد يقال: شاب رأسها.

المشيب: دخول الرجل فى حَدِّ الشيب من الرجال.. اللسان/ شيب.

الشَّبابُ: شَبَبَ، الفتاء والحداثة. شب يشبُّ شبابا وشبيبة، والاسم الشبيبة وهو خلاف الشيب الشباب جمع شاب، وكذلك الشُبان. اللسان/ شبب.

مفعمة بالأحاسيس الزاخرة والصور الفنية البارعة، فقد استطاعا بإحساسهما المرهفين أن يجعلا من موضوع الشيب الشباب مادة تصويرية خصبة.

وقد تنبه الآمدى فى الموازنة إلى إكثار كل من أبى تمام والبحترى من ذكر الشيب والشباب فعقد موازنات بين ما قالاه فى مطالع القصائد، وفى وسطها، وفى وصف الشيب وذمه، وكره النساء للمشيب ونزول الشيب قبل حينه، والبكاء على الشباب والتعزى عنه والعزوف عن الصبا والاعتذار من المشيب ومدح الشيب والتعزى عنه.

واستولى هذا الموضوع على اهتمامى لما لحظته لدى أبى تمام والبحترى من استخدام موضوع الشيب والشباب إطاراً فنيا يبث فيه كل منهما من خلاله أحاسيسه دون أن يكون موضوع الشيب والشباب هو غرضهم المقصود، وتلك الظاهرة هى التى حفزتنى إلى تناول هذا الموضوع بالبحث لاستنباط العلاقة بين هذه المقدمات والغرض الأساسى، إضافة إلى التحليل البلاغى الذى يكشف عن حسن النظم، مع التعرض للموازنة بين الشاعرين فى بعض المواضع التى تبين اختلاف الصنعة والتصوير فى المعنى المتحد.

وجاء البحث فى مقدمة وسبعة مباحث ثم الخاتمة.

المقدمة: ذكرت فيها أهمية كتاب الموازنة، وأهمية الموضوع وسبب اختيارى له.

المبحث الأول: ما قالاه فى الشيب والشباب من ابتداءات القصائد.

المبحث الثانى: ما جاء عنهما فى وسط كلامهما من ذكر الشيب والشباب ووصف الشيب وذمه.

المبحث الثالث: كره النساء للمشيب.

المبحث الرابع: نزول الشيب قبل حينه.

المبحث الخامس: البكاء على الشباب والتعزى عنه والعزوف عن الصبا.

المبحث السادس: الاعتذار من الشيب.

المبحث السابع: مدح الشيب والتعزى عنه.

الخاتمة: وتضمنت أهم نتائج البحث والتوصيات.

Scanned with CamScanner

المبحث الأول

ما قالاه فى الشيب والشباب من ابتداآت القصائد

أولاً: (ابتداآت أبى تمام) فى الشيب والشباب والعزوف عن الصبا.

[١] قال أبو تمام (من الكامل):

نَسَجَ المَشِيبُ لَهُ لِفَاعًا مُغْدِفًا ∴ يَقَقًا فَقَنَّعَ مِذْرَوَيْهِ ونَصَّفَا[١].

يصور أبو تمام الشيب الذى ألم بفوديه بالثوب الأبيض الذى نسجه له المشيب وارتداه فأثر على فوديه وقنعه بالقناع الأبيض الجميل.

يعنى أن المشيب قد كساه بثوب سابغ أبيض فابيض سالفاه وإنه مُتَقَنِّع به كالقناع والخمار.

أول ما يلفت النظر فى هذا البيت لفظ (نسج) فهو محور البيت الذى يدور حوله المعنى، بل هو أساس المعنى، فلو غيرت هذا اللفظ الى لفظ آخر تغيرت الصورة وتغير المعنى؛ لأن لفظ (نسج) يدل على التنظيم والدقة والتحرى والنظر والسرعة، ليس هذا فقط وإنما تحرى الجمال فى حسن المنظر كما ينسج الحائك الثوب، فجسد وشخص المشيب على سبيل الاستعارة المكنية فكأنه إنسان يحيك الثوب فيتحرى الدقة والتنظيم مع مراعاة الشكل الجميل فى الحياكة فهكذا فعل المشيب بفوديه.

وذكر الإمام عبدالقاهر فضيلة الاستعارة يقول: (ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبداً فى صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً، وتوجب له

---

(١) شرح ديوان أبى تمام/ ٨٩١، شرح إليا الحاوى، والموازنة٢/١٩٠.

نَسَجَ: النسج: هو ضم الشىء الى الشىء هذا هو الأصل.. .. ونسج الحائك الثوب.. ونسج الكذاب الزور لفقه، ونسج الشاعر الشِّعْر نظمه.. .. ونسج الغيث النبات كله على المثل.. ونسجت الناقة فى سيرها أسرعت نقل قوائمها/ اللسان نسج، لفاعا: يريد لباسا، يقال: لفع المشيب رأسه: إذا شمله وعلاه/ اللسان: لفع.

والمغدف: السبل، يقال: أغدَفتُ السِّترَ إذا أسبلته. اللسان/ غدف.

يَقَقا: اليقق المتناهى فى البياض: أى شديد البياض ناصعه/ اللسان: يقق.

مِذرَوَاهُ: فوداه، ومذروا كل شىء: ناحيتاه، اللسان/ فود.

نصفا: أى قَنَّعَ جانبى رأسه حتى بلغ النصف منه.

بعد الفضل فضلاً ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت بها فوائد ...) [١].

وقدم الجار والمجرور (له) على المفعول (لفاعاً) لإفادة التخصيص فهو يتحدث عن نفسه وما أصابه من الشيب دون غيره، وعبر بـ (له) دون (لى) على سبيل التجريد فقد انتزع من نفسه شخصاً آخر.

وقد زاد المعنى وضوحاً فى قوله (مغدفا، يققا، فقنع) فقد وصف هذا الثوب أنه طويل أبيض، ومن المعروف أن الثياب البيضاء محببة الى النفس مريحة للعين.

وكأنه هنا يمتدح الشيب فقد زاده جمالاً وبهاء وحسناً، وما أجمل الثوب الجديد الذى يرتديه الإنسان، وكيف تكون فرحته به، وأنت ترى أبا تمام يعترف ويقر بالشيب فلم ينكره بل على العكس من هذا.

ويبدو أن المشيب فعل به ما فعل فلم يستطع مراجعته، فهو واقع لا محالة، ولهذا عبر بالأفعال الماضية (نسج، قنع، نصّفا) كما تلحظ تشديد العين فى (قنّع، ونصّفا) التى تدل على المبالغة فى حسن الصنعة والتنظيم، وعطف (ونصفا) على (قنع) للإيضاح والتفسير، فـ (نصفا) بيان وتفسير لـ (قنع).

يقول الآمدى: (وإنما أراد أبو تمام ما أراده الآخر بقوله:

أصبح الشيبُ فى المفارق شاعا .: واكتسى الرأس من مشيب قناعا.

فالمعنى واحد ولكن تختلف الصنعة والتصوير، فصنعة وتصوير أبى تمام أبدع وأوكد فقد جعل الشيب هو الذى نسج وأبدع وقنع ونصف فقد تخيل فيه الدقة والبياض معاً مع الجمال والحسن، فـ (نسج) أبلغ وأتم فى المعنى من قول الآخر: (اكتسى) مع أن الاثنين يجمعهما الحسن والجمال فهما يمتدحان الشيب.

وبيت أبى تمام ذكره فى سياق الحديث عن الخطوب التى ألمت به، فتسببت فى اختلاط الشعر الأسود بالأبيض، أى ظهور الشيب قبل أوانه، والقصيدة قيلت فى الاعتذار المتضمن معانى المدح؛ لأن الحاسدين قد

---

(١) الأسرار /٤٢.

أوقعوا بينه وبين الممدوح، فربما أصابه الشيب من هذا، أو أنه يريد أن يبين ويوضح للممدوح أنه قد بلغ السن الذى به يكون رجاحة العقل والخبرة فى الأمور ولهذا فلا يعقل أن يصدر منه إساءة الى الممدوح.

وتجد المناسبة جلية واضحة بين هذه البداية وخاتمة القصيدة يقول:

وأراك تدفع حرمتى فلعنى ∴ تقلتُ غير مؤنب فأُخففا(١).

فترى فى ذكر الشيب قرب الارتحال، فكانت المناسبة.

هذا .. وترى التناسب بين الألفاظ والمعانى والتأملات والأخيلة قد انسجمت مع بحر الكامل ، فقد أُلف فى لفظ رصين مع براعة فى الصورة الاستعارية، التى لا تصدر إلا عن ذى عقل ناضج عميق التفكير عالم بما يقول،

"ومن عجيب خصائص الكامل أنه من أصلح البحور لإبراز العواطف البسيطة غير المعقدة، وللشعراء فى الأداء بواسطته مذهبان: الفخامة والجزالة من ناحية، ومن ناحية أخرى الرقة واللطف، والجمع بين الصور البارعة والدقة فى الوصف"(٢).

[٢] قال أبو تمام يعاتب جعفر بن دينار (من الكامل):

يَضْحَكْنَ مِنْ أَسَفِ الشَّبَابِ المُدْبِرِ ∴ يَبْكِينَ مِنْ ضَحكات شَيْبِ مُقْمِرِ(٣).

أى أن النساء يضحكن على حزنه وغضبه لما فاته من الشباب، ويبكين من ظهور الشيب الأبيض المتألق فى فوديه.

أول ما يلفت النظر فى هذا البيت النغمة الموسيقية العالية التى تحققت فى المقابلة وصحة التقسيم، والمبالغة.

ثم أنه جسد وشخص الشباب فجعله حزيناً لمفارقته، فقد تولى عنه وهو غضبان أسفا على ما فاته، مما جعل النساء يضحكن من حالته.

---

(١) أى: أراك تدفع حرمتى بك، وربما كنت قد حملتك ثقلا دون أن أؤنبك فأخفف بالارتحال عنك/ شرح ديوان أبى تمام/ ٨٩٤.

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ١/٢٥٩.

(٣) شرح ديوان ابى تمام/ ٨٨٢، والموازنة ٢/١٩١، أسف الشباب: الأسف المبالغة فى الحزن والغضب، وقد أسف على ما فاته، أى: حزن على ما فاته/ اللسان/ أسف، وفى الديوان (ضاحكن)، (بكين) بالماضى.

Scanned with CamScanner

كما أنه جسد الشيب، وعبر عن ظهوره بضحكات شيب مقمر، فقد تخيل فى الشيب السرور والفرح والجمال والحسن والاهتداء، فبظهور الشيب يزداد الإنسان خبرة وعظة يقتدى به الآخرون، فكأنه ينير لهم طريق النصح والإرشاد بخبرته فى الحياة، فما كان للنساء أن يضحكن أو يبكين فقد مضى عنه الشباب وهذا أمر طبيعى وأحل به الشيب وهذا أمر حتمى، ولهذا عرف الشباب لعهده به، ونكر الشيب لجهله به أو كرهه له مع أنه واقع.

ويعلق الآمدى على هذا البيت فيقول: (وهذا بيت ردئ، وما سمعت يضحك من الأسف إلا هذا البيت، وكأنه أراد قول الآخر:

* شر الشدائد ما يضحك *

فلم يهتد لمثل هذا الصواب.

وقوله: (من ضحكات شيب مقمر) ليس بالجيد أيضاً، ولو كان ذكر الليل على الاستعارة لحسن أن يقول مقمر؛ لأنه كان يجعل سواد الشعر ليلا، وبياضه بالمشيب إقماره؛ لأن قائلاً لو قال: أقمر ليل رأسك كان من أصح الكلام وأحسنه، وإن لم يذكر الليل أيضاً حتى يقول:

قد أقمر عارضاك، أو فوداك – لكان حسنا مستقيماً، وهو دون الأول فى الحسن،، وذلك أنه قد علم أنهما كانا مظلمين فاستنارا.

وسقى الله البحترى الغيث إذ يقول:

لِيالٍ سَرَ فِيْنَاهَا مِنَ الدَّهْرِ بَعْدَمَا ∴ أَضَاءَ بِإِصْبَاحٍ مِنَ الشَّيْبِ مَفْرِقِ

ديوان البحترى/ ٥١٨

وإنما أراد أبو تمام قول دعبل: * ضحك المشيبُ برأسه فبكى* فأفسد المعنى[1].

وقد رد عليه المرتضى فى الشهاب أن المراد من قول ابى تمام: يضحكن من أسف الشباب المدبر » يحتمل أن يكون المراد أن النساء عندما يرين بكاء عشاقهن وأسفهن على الشباب المدبر يهزأن بهم ويضحكن منهم، ومثل هذا فى الشعر كثير، وقوله (يبكين) فالأولى أن يحمل على أن المراد

---

(١) الموازنة٢/١٩١.

به أنهن يبكين من طلوع الشيب.. ..)[١].

وفى رأيى أن أبا تمام لم يفسد المعنى كما قال الآمدى؛ لأن المقام هو الذى يحدد المعنى ويوضحه فهنا الحديث بينه وبين هؤلاء النساء فكأنه يقول لهن كيف تهزأن وتضحكن من أسف الشباب المدبر وكأنه يتعجب من حالهن فكان يجب عليهن أن يحزن ويبكين على بكائه وأسفه على الشباب المدبر، وأيضاً يتعجب من بكائهن على ما لحقه من جمال وحسن عندما أصابه ضحكات الشيب المقمر.

والبيت يكشف عن فلسفة ابى تمام وتعمقه فى المعانى، وكأنه يريد أن يلفت النظر إلى تحول هؤلاء النساء من حال إلى حال وتغير حالهن، مع عدم مشاركتهن له فى أحزانه وأفراحه، فعندما أسف على الشباب فهن يضحكن، وعندما عبر عن ضحكات الشيب المقمر فهن يبكين.

وقوله: (من ضحكات شيب مقمر) صورة تشبيهية رائعة حيث شبه بياض الشيب ببياض القمر، وهذا يوحى باعتراف ابى تمام بالشيب والرضا به بل التفاؤل بقدومه فكأنه جمع بين البياض والنور وكأنه يتخيل حياة جديدة فيها الخير، فهو لا يستسلم للشيب، وجاء البيت فى بداية المقدمة الغزلية ثم بعد ذلك تخلص إلى المدح والعتاب، فكانت المناسبة وكأنه فى هذا البيت يتعجب وعاتب هؤلاء النساء على استهزائهن المتمثل فى الضحك والبكاء.

❁❁❁❁❁

[٣] قال أبو تمام (من البسيط):

أَبْدَتْ أَسًى أَنْ رَأَتْنِى مُخْلِسَ القُصَبِ

وآلَ مَا كَانَ مِنْ عُجْبٍ إلى عَجَبِ[٢].

---

(١) ينظر: الشهاب/ ٤٢، ٤٣.

(٢) شرح ديوان أبى تمام/ ٤٧، الموازنة٢/ ١٩٢.

المُخْلِسَ: من اختلط السواد والبياض فى شعره، القُصَبُ: جمع القصبة: وهى خصلة شعر دون الضفيرة. اللسان/ قصب.

عَجَبَ: العَجْبُ والعَجَبُ: إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده، والجمع أعْجابٌ.

بدأ أبو تمام بالجملة الفعلية (أبدت أسىً) فقد أظهرت هذه المرأة ما بداخلها من حزن فهى بداية غير مبشرة، ثم علل وبين سبب حزنها لأنها رأته بحالته هذه وقد اختلط سواد شعره بالبياض ولهذا عبر بالحال (مُخْلس) لبيان ما هو عليه من شيب الذى هو سبب حزنها، وقد تغيرت حالتها من إعجاب إلى تعجب، وبناء هذا على الجناس الذى طلبه المعنى فقد تحول حالها من سرور وإعجاب إلى إنكار وحزن.

والحديث هنا عن امرأة واحدة، فيصف حالتها التى تحولت إلى حزن بعد سرور وتحول إعجابها بحسنه إلى تعجب من شيبه.

فهو يريد أن يقول أن هناك تغييراً وتحولاً عندها أما هو فقد تغير حاله من الشباب إلى الشيب ولكن هذا ليس بيده، وقد تغيرت حالتها من إعجاب إلى تعجب وهذا بيدها. ولهذا قال (أبدت أسى) فهى التى أبدت وهى التى حزنت، ثم قال: (أن رأتنى مخلس القصب)، أى لرؤيتى.. .. أى لحالته وما أصابه من الشيب الذى لابد منه، فهنا يعترف بالشيب، ولكن صنعته تختلف عن صنعة البيت السابق فلا أسف على الشباب ولا مدح للشيب، وإن لم يصرح بهما إلا أنهما يفهمان بطريق الفحوى.

❁❁❁❁❁

قال أبو تمام فى العزوف عن الصبا:

أَبَى: فَلاَ شَنَباً يَهْوَى، ولا فَلَجَا .·. ولاَ احْوِرارًا يُرَاعِيهِ، ولاَ دَعَجَا [1].

الشاعر هنا يعرض عن الصبا، فلم يعد يهتم أو يغوى بما تهتم به النساء من برودة الثغر، وتفلج الأسنان وسواد المقلة.

وهذه البداية مناسبة لجو القصيدة؛ حيث أنه يتحدث عن الكفاح بقوة العزيمة ضد هذه الفرقة التى تتحلل من كل ما أمر به الشرع، فكانت المناسبة، فهو لم يشغل نفسه بالشوق، وإنما انصرف إلى الكفاح.

---

(١) شرح ديوان أبى تمام/ ١٣٩، الموازنة٢/ ١٩٢.

الأشْنَبُ: بارد الأسنان، الفلج: جزوز فى الأسنان، الأحورار: بياض العين، وسواده، الدَّعجُ: سواد العين، شدة سواد العين مع سعتها/ اللسان/ دَعَجَ، ورد البيت فى الديوان بدون «أبى».

ويؤكد هذا تكراره لـ (لا) النافية للجنس أربع مرات، وقد افتتح البيت بالنفى المقترن بالفاء التى تفيد سرعة انصرافه عن كل هذه الأشياء التى هى سبب فى الشوق.

وقد بنى البيت على الحذف البديع، فقد حذف خبر لا فى قوله: (ولا فلجا ولا دعجا) اعتماداً على الأول فى (فلا شنبا يهوى) ولا أحواراً يراعيه، وعطف بالواو بين هذه الجمل للتوسط بين الكمالين، فالجمل كلها خبرية لفظاً إنشائية معنى، وقد جمع بين هذه الأمور المتناسبة (شنبا – فلجا – أحوراراً – دعجا) لمراعاة النظير فكلها من واد واحد، وأنت ترى أن البيت جمع بين مراعاة النظير وصحة التقسيم والتصريع، وهذا ما اشتهر به شعر ابى تمام فقد توفر فيه النغم والموسيقى العالية.

❁❁❁❁❁

ثانياً: ابتداآت البحترى فى الشيب والشباب والعزوف عن الصبا

يقول الآمدى: (وللبحترى فى هذا الباب ابتداآت كثيرة تصرف فيها أحسن تصرف وافتنَّ فيها أحلى افتنان وذلك قوله:

[١]أَبَعْدَ المَشِيبِ المُنْتَضَى فى الذَّوَائِبِ .: أُحَاوِلُ لُطْفَ الوُدِّ عندَ الكَوَاعِبِ؟[١].

البحترى ينكر ويتعجب من حاله ويقول أبعد أن أصابنى الشيب ومضى الشباب هل أحاول كسب ود النساء، فهذا بعيد.

فالشاعر استعار لفظ (المنتضى) (للشيب)، فقد شبه سرعة ظهور الشيب وكأنه نزع من السواد بسرعة انتزاع السيف من غمده بجامع السرعة والمفاجأة فى كل إضافة الى البريق والبياض.

يقول الآمدى: « فجعل الشيب منتضى فى الذوائب أى: مشهور فيها على الاستعارة كأنه جعله سيفا سل فى رأسه»[٢].

ثم يقول الآمدى: وأجود من هذا قوله (من البسيط):

وددت بياضَ السيفِ يوم لقيتنى .: مكان بياض الشيب كان لمفرقى

---

(١) ديوان البحترى ١/١٠٨، والآمدى٢/ ١٩٢، والقصيدة فى مدح المعتز بالله.
المنتضى: انتَضَى السيف انتزعهُ من غمده
(٢) الموازنة٢/ ١٩٥.

فهنا يتمنى أن يرى بياض السيف بدلاً من أن يرى بياض الشيب، لكراهته للشيب وحرصه على إخفائه، وهنا يعبر بصدق عما بداخله، فهى مرحلة بدء الابتلاء بالشيب، وفى رأيى أن قوله (أبعد المشيب.. ..) أجود لأنه بنى على الاستعارة البديعة، وعلى الاستفهام المتضمن معنى الانكار والتعجب، ثم أنه وصف (المشيب) بـ (المنتضى) لبيان جماله وبريقه وقوته.

ثم أنه كنى عن النساء الجميلات الصغيرات فى قوله (عند الكواعب) وقد عبر بالخبر بعد الإنشاء لتكتمل الصورة المعبرة المؤثرة وقد قيل : إن الجمل الخبرية وإن عبرت عن شعور الأديب يعوزها فيض من الصيغ الإنشائية يشد أزرها ويقوى أثرها فبالانشاء يقوى الخبر وبهما معا تكتمل الصورة المعبرة المؤثرة.

فالبحترى هنا هو الذى يتعجب وينكر على نفسه أنه لا يحاول كسب ود النساء الصغيرات، وذلك بسبب ظهور الشيب عنده فهو لم يذكر سخرية النساء منه كما فعل أبو تمام فجعل النساء يضحكن ويبكين ويتحول إعجابهن إلى عجب، فالنساء هن اللاتى تركنه، أما البحترى فهو الذى ترك وانصرف عنهن فلا يعطى لهن مجالا للسخرية والاستهزاء؛ لأنه يعلم أنه لا يكسب منهن وداً بعد المشيب ولهذا فقد أنكر وتجاهل.

وهذا البيت مطلع لقصيدة بدأها بالوقوف على الأطلال، فقد استبعد الشاعر كسب ود هؤلاء النساء بعد إصابته بالشيب فلا أمل فيهن، ثم يبين أنه وقف بالأطلال فلم تجبه، ثم يتخلص إلى غرض المدح؛ حيث وجد الإجابة عند هذا الممدوح فكانت العلاقة، ثم أنه ختم القصيدة بقوله:

أؤمل جداوهُ وأرجو نوالهُ ∴ وما الآملُ الراجى نداه بخائبِ

الديوان ١/١١١

ختم بالاستفهام كما بدأ، فترى التوافق فى البناء، ثم التوافق والتناسب فى المعنى، ففى قوله: (أحاول لطف الود عند الكواعب) أى: أنه لا أمل فيهن فى تحقيق آماله، أما هذا الممدوح عندما أتوجه إليه بالطلب والرجاء

فلست بخائب فهو يحقق لى آمالى، فكانت المناسبة فى البناء والنظم والتناسب فى المعانى.

❁❁❁❁❁

[٢] وقال فى بداية أخرى:

رأت وخطَّ شيب فِى عَذَارِى فَصدَّتِ.. ولم تَنْظِرَنِّى مِنْ جَوى قَدْ أَجَدَّتِ[١].

يقول البحترى: عندما رأت هذه المرأة ظهور الشيب علىَّ فصدت عنى، ولم تهتم بحرقة الفراق من جراء ما فعلت بى.

مبنى هذا البيت على التعبير بالأفعال الماضية (رأت، خط، فصدت، أخذت) التى أفادت تحقيق الرؤية وترتيب الصد على الرؤية، فرؤيتها للشيب الذى فى العذارى جعلتها تصد دون تفكير ودون تردد ولهذا عطف بالفاء.

وقوله: (ولم تنظرنى من جوى قد أجدت) تأكيد الصد من جانب هذه المرأة التى لم يؤثر فيها حرقته ولوعته، وفيه فحوى لتأكيد شوق الشاعر تجاه هذه المرأة التى كان منها الصد والفراق، أما هو فكان منه الحب والشوق. وقد أكد هذا مرة أخرى بـ (قد أجدت).

والبحترى هنا لم يقرن بين الشيب والشباب، ولكنه ذكر حديث الشيب فقط.

والبيت مطلع القصيدة وتصدر المقدمة الغزلية للغرض الأساسى وهو (المدح) فقد ذكر فيها الصد والفراق والهجر بينه وبين هذه المرأة، ثم يتخلص من المقدمة إلى الغرض الأساسى فيقول:

فأقصر عن الوجد الذى عنه أقصرتْ.. وعَدِّ عن الشوق الذى عنه عَدَّتِ

الديوان ١/ ٣٧٠

وكأنه يقول اترك من قصر فى وجدك ووصلك واذهب إلى من تتشوق إليه فيكون منه الوصل وعدم الصَّد، فكانت العلاقة والترابط بين المعانى ثم أنه ختم بقوله:

---

(١) ديوان البحترى ١/ ٣٦٩، والقصيدة فى مدح المهتدى بالله، وفى الديوان (ولم تنتظر بى نوى قد أجدتِ).

فإن تمَّ إذنٌ فى الوصول فإنه ∴ تمامُ وجوبِ الشكر آخرَ مُدَّتى

فقد تم الوصال بينه وبين الممدوح، وهذا ما أوجبه الشكر حتى نهاية العمر. فقد بنى الخاتمة على أسلوب الشرط والعطف بالفاء والتعبير بالماضى كما فى المطلع فكانت المناسبة فى البناء والمعنى.

❁❁❁❁❁

وقال:

غَلَّسَ الشَّيْبُ أو تَعَجَّلَ وِرْدَهْ ∴ واستَعَارَ الشَّبَابَ مَنْ لاَ يرُدُّه[١].

يقول البحترى: إنه نزل به الشيب مبكراً قبل أوانه، وقد استعار له الشباب بطريق الصبغ ولكنه دون جدوى فلا يستطيع أن يهرب منه.

وقد صور الشيب الذى أصابه بأخر الليل المختلط بضوء النهار، على سبيل الاستعارة المكنية وأنت ترى دقة الصنعة والتصوير، فهذا الشيب الذى ألم به واختلط مع السواد راعى فيه دقة وبراعة التنظيم، والجمال، فهو من صنع الله تعالى كاختلاط الليل بالنهار.

وقوله: (واستعار الشباب من لا يرده) كناية عن رفضه للشيب فهو يواريه بالصبغ ولكن دون جدوى لأنه يظهر مرة أخرى.

والأفعال الماضية هى الغالبة على سطح هذا البيت لتحقق هذه المعانى وقد تميز البيت بالمفارقة بين الشيب والشباب للإيضاح والتمييز وبيان حاله وموقفه من الشيب وكيف تصرف معه عندما استعار الشباب وفيه دلالة قوية وواضحة أن الشيب فى النهاية ينتصر على الشباب، ولا يستطيع الشباب أن يرده، وفى هذا اعتراف بالشيب وأنه لابد منه، واستحالة عود الشباب.

[٤] وقال: أمَّا الشَّبَابُ فَقَدْ سُبِقْتَ بِغَضِّهِ ∴ وحَطَطْتَ رَحْلَكَ مُسرِعًا مِن نقضِهِ[٢].

---

(١) ديوان البحترى ٥٢٩/١، والموازنة ١٩٢/٢، والقصيدة فى مدح عبد الله بن الحسين.
غَلَّسَ: الغلس: ظلمة آخر الليل، وقيل: أول الصبح حتى ينتشر فى الآفاق. أى: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. اللسان/ غلس.

(٢) ديوان البحترى ١٩٥/٢، والموازنة١٩٣/٢، والقصيدة فى مدح إبراهيم بن سهل، الغض من الشباب: الناضر، النقضُ: المهزول من السير ناقة كان أو جملاً.

يقول: إنه فى شبابه كان قوياً نضراً وعندما أصابه الشيب أصبح هزيلاً ضعيفاً، فحياة الشيب تختلف عن حياة الشباب.

وتصوير البحترى هنا يختلف عن تصوير أبى تمام، فالبحترى يصور ضعفه وهزاله فى مرحلة الشيب بالناقة التى أصابها الإجهاد والهزال من كثرة السير فحطت الرحل بعد أن كانت مسرعة.

وربما أراد الشاعر إطالة مرحلة الشباب بما فيها من لهو ومرح فقد مل وضعف وتعب أو ربما ضاقت نفسه من اللهو فهو يحتاج إلى الراحة وقد صرح الشاعر بالشباب فكان حديثه مباشراً، ولم يصرح بالشيب وإنما ذكره بطريق الفحوى.

وعطف بالواو بين جملة (وحططت رحلك)، وبين جملة «سبقت بغضه» للتوسط بين الكمالين.

وتأمل جمال التصريع[1] بين العروض والضرب حيث النغمة العالية وزاد من جمال التصريع التضاد بين (بغضه ، نقضه) فالغض هو الناضر من الشباب المفترض فيه القوة، والنقض المهرول المفترض فيه الضعف).

وأنت تجد المناسبة بين هذا المطلع والغرض الأساسى واضحة جلية فقد بيَّن أنَّ الشباب الذى صحبه طول حياته انتهى إلى الشيب يقول:

فعلى الصِّبا الآن السلام ولوعةٌ .: تثنى عليه الدمع فى مرفضه

فهو يتحسر وكأنه يبكي أيام الشباب بدلاً من بكاء الأطلال.

ثم ينتقل إلى غرض المدح، ليجد عند هذا الممدوح ما يُذهب همه وحزنه، فقد خدعه الشباب والصبا عندما تولى عنه، أما هذا الممدوح فلم ينخدع بكرمه وجوده، يقول:

لم نُخْتَدعْ بجهامِهِ عن غيمه .: يوماً ولم نر خلبا من ومضه

الديوان ١١٩٦/٢

---

(١) لون من ألوان السجع ويقع فى الشعر بين العروض والضرب، (وهو جعل العروض مقفاة تقفيه الضرب، وهو مما استحسن حتى إن أكثر الشعر صُرِّع البيت الأول منه كذلك يستحسن فى الانتقال فى القصائد من غرض إلى غرض كالانتقال من النسيب إلى المدح). بغية الإيضاح ٨٣/٤، ٨٤.

[٥] وقوله فى مدح إسماعيل بن بلبل (من الكامل):

تَرَكَ الشَّبَابَ لِلابِسِيه وبَيَّضَا ∴ ونَضَا مِنَ السِّتِّينَ عَنْهُ ما نَضَا[١].

يقول: إنه ترك الشباب لأهله فقد نزع منه الشيب كما ينزع السيف من غمده.

وبدأ بالجملة الفعلية (ترك الشباب) التى توحى بتحقق الرضا والتسليم بالواقع وربما أراد الشاعر ملمحاً آخر، وهو ترك اللهو العابث وترك لذائذ الحياة وشهواتها.

وفى التعبير بـــ (ترك) ما يوهمك أنه تركه برغبته ولم يجبر على هذا فلم يتركه الشباب وإنما هو الذى تركه.

وقد جسد الشباب بالشىء المتروك أو بالثوب الذى خلعه وتركه لأهله، وقد صرح بالشباب وكنى عن الشيب بذكر (الستين) فقال: ونضا من الستين عنه ما نضا، فقد جسد الشيب وكأنه سيف سل من غمده بجامع البياض والبريق فى كل، فقد خلع مع بلوغه الستين سروره ونشاطه وهناءه ومتعته، وأيقن أنه لن يستطيع مجاراة الشباب فى صبواتهم ولهوهم.

وعطف بالواو بين (ترك، وبيضا، ونضا) للتوسط بين الكمالين.

وزاد من جمال الوصل الاتفاق فى التعبير بالأفعال الماضية ، وقد عبر الشاعر عن ذهاب الشباب وإقبال الشيب بنظم بديع وإيجاز بليغ بألفاظ واضحة المعنى.

❁❁❁❁❁

[٦] وقال فى مدح على بن محمد بن الحسين (من الخفيف):

لابِسٌ مِنْ شَبِيبَةٍ أَمْ نَاضِ؟ ∴ ومُلِيحٌ من شَيْبَةٍ أَمْ رَاضِ[٢]؟

---

(١) الديوان ١١٩٨/٢، والموازنة٢/ ١٩٣، وفى الديوان (ترك السواد).

نَضَا: نَضَا ثوبه عنه نضوًا: خَلَعُه وألقاهُ عنه.. .. ونضا السيف نضوا وانتضاه: سَلَّهُ من غمده، ونضا الخضاب: ذهب لونه/ اللسان/ نضا.

(٢) الديوان ١٢٠٧/٢، والموازنة٢/ ١٩٣، لابِس: بالفتح خالط، أو كثير اللباس أو ذو لباس على التشبيه. اللسان/ لبس، شبيبة: اسم وهو خلاف الشيب، ناض: ظاهر أو من نضوت ثيابى عنى إذا ألقيته. اللسان/ نضض. مليح: مشفق خائف حذر، يقال: لاح منه أى خاف وحاذر، وأصله الخوف من شىء له بريق ثم كثر واستعمل فى كل مخوف.

يقول: هل أنت متمسك بالشباب أم تتركه وهل أنت خائف وحذر من الشيب، أم راض وغير خائف منه.

بناء هذا البيت على الاستفهام المحذوف (ألابس، أمليح) أى: أأنت لابس. او ألابس أنت أم ناض، والمراد من الاستفهام هنا الحيرة والتخبط فهو يجرد من نفسه شخصاً آخر يسأله، مع أن الإجابة معروفة، وقد صور الشباب بالثوب إما أن يلبس أو يترك.

وزاد من جمال الصورة حسن التقسيم فى (ربسٌ من شيبية، ومليح من شيبة، أم ناض وأم راض) ، والتصريع بين العروض والضرب فى (أم ناضٍ وأم راضٍ).

❁❁❁❁❁

[٧] وقال يمدح أبا نهشل محمد بن حميد الطوسى (من الخفيف):

هَا هُوَ الشَّيبُ لائِماً فَأَفِيقِى ∴ واتْرُكِيهِ إنْ كَانَ غَيْرَ مُفِيقِ[١].

ينبه الشاعر هذه المرأة ويأمرها بالإقاقة مما هى فيه بطريق الشرط الذى يفيد التوكيد، وقصر حديثه هنا عن الشيب دون الشباب، وعرفه بأداة التنبيه المفيدة للإشارة، والضمير هو، أل، وكل هذه المعارف للفت نظر هذه المرأة أنه لا يضيق بهذا الشيب وأنه معترف به لأنه واقع لا مهرب منه، ولابد أن تقر هى بهذا.

ولهذا عبر بالحال (لائما) وكأن هذا الشيب يلومها ويزجرها على ما هى فيه من رفض، فقد جسد وشخص الشيب وكأنه إنسان ماثل أمام عينيه على سبيل الاستعارة المكنية، وعبر بالفاء فى قوله (فأفيقى) لسرعة الامتثال لهذا الأمر، والتقدير (فأفيقيه) فقد حذف المفعول لدلالة (اتركيه) والمحافظة على وزن البيت والتصريع. ولهذا عطف بالواو فى (واتركيه) للتوسط بين الكمالين، وحذف جواب الشرط والتقدير إن كان غير مفيق فأفيقيه لدلالة (فأفيقى) عليه.

❁❁❁❁❁

[٨] وقال (من الرمل):

قَالَتْ: الشَّيبُ أَتَى قُلْتُ: أجلْ ∴ سَبَقَ الوقتَ ضِراراً وعَجِلْ[١].

---

(١) الديوان ٣/١٤٨١، الموازنة٢/١٩٣، أفيقى: فأفاقه المغشى عليه، غير مفيق: أى لا يرجع الشباب مرة أخرى بعد الشيب.

يختلف بناء هذا المطلع عن المطالع السابقة، فمبناه على الحوار الذى دار بينه وبين هذه المرأة (قالت) فالقول قد تحقق وللسائل أن يسأل (ماذا قالت) فيكون الجواب « الشيب أتى » ويبنى قوله وجوابه على قولها وجوابها، فيقول: (قلت: أجل.. ..) .

وجملة (الشيب أتى) خبرية تفيد التأكيد والاقرار والاعتراف بالشيب، ولهذا عرفه بـ (أل) للإشارة إلى شيء معهود[٢] بين المتكلم والمخاطب.

ولأن هذا الحوار من أجله، فالحديث عنه ولهذا جسده بقوله: (أتى) وكأنه ضيف مقيم قد أتاه على حين غفلة، وأكده بقوله: (أجل) فهو اعتراف منه بقدوم الشيب فلم ينكره، ولم يكتف بالاعتراف ولكنه يعلل قدومه أنه أتى قبل أوانه دون الانتفاع به فيقول: (سبق الوقت ضرارا وعجل) وكأنه فى سباق مع الزمن وقد تفوق عليه. وأنت تجد البحترى قد صور المعنى بصورة واضحة جلية، هذا بخلاف تصوير أبى تمام الذى يتميز بالتعمق والفلسفة.

❁❁❁❁❁

قال البحترى:

أَكَانَ الصِّبَا إِلَّا خَبَالاً مُسَلَّمَا .: أَقَامَ كَرَجْعِ الطَّرْفِ ثُمَّ تَصَـرَّمَا[٣].

يقول: إن الصبا ما هو إلا نقصان العمر فإقامته قصيرة مثل ارتداد الطرف فهو ينقضى ولا يعود مرة أخرى، فالبحترى يصور استحالة رجوع أيام الصبا.

وتصدر البيت بالاستفهام والمراد منه النفى أى ما كان الصبا إلا خبالاً.

وأفاد هنا القصر فقد قصر النقصان على أيام الصبا، ثم أنه وضح هذا

---

(١) الديوان قافية اللام، الموازنة٢/١٩٣، ضرارا: أى منهما معا، والضرار: أن تضره من غير أن تنتفع.

(٢) (واللام هنا لام العهد الحضورى، وهى التى لا يتقدم لمدخولها ذكر مطلقا لا صريحا ولا كناية – لكن للمخاطب علم به) معانى التراكيب د/ عبدالفتاح لاشين ١/١٩٩.

٣) الديوان ٤/٢٠٨٧، الموازنة٢/١٩٤، والقصيدة فى مدح الهيثم بن عثمان.

خبالا: إما الفساد أو الحبس، أو النقصان والهلاك، المراد بها هنا النقصان، الطرف: العين: لا يجمع؛ لأنه فى الأصل مصدر وقيل فى جمعه: أطراف، ورجع الطرف: ارتداده، تصرَّم: تقطع، انقضى. مسلما: يسلمك إلى حيث تريد.

النقصان وحدده كما تخيل هو فشبهه بـــ (ارتداد الطرف الذى انقضى دون رجعة) ولهذا عبر بالأفعال الماضية (كان - أقام - تصرما) وأيام الصبا تسبق أيام الشباب وهى مدة قصيرة، ولكن البحترى بالغ فى قصر هذه المدة من العمر ربما لأن الإنسان لا يكون مدركا لما يحدث فى هذه المدة.

وقوله: (ثم تصرما) احتراس لإتمام وجه الشبه بين الاثنين؛ لأن الصبا ينقضى ولا يعود مرة أخرى، أما ارتداد الطرف فيعود ولهذا احترس، وهذا من الإيغال وقد أحدث شيئا من المبالغة أوغل بها فى الوصف ووكده وأتمه بقوله: (ثم تصرما) وفى رأيى أن العطف بالفاء كان أنسب من العطف بـــ (ثم) لأن الشاعر يصور سرعة ارتداد الطرف وتصرمه.

وهنا صرح بأيام الصبا وصورها بطريق مباشر، فهو يتذكر ما مضى من أيام الصبا فقد انقضت ويتبعها الشباب والشيب فكأنه ذكر هاتين المرحلتين بطريق الفحوى.

❁❁❁❁❁

وقال:

خَطَتْهُ فَلَمْ تَحْفِلْ بِهِ الأَعْيُنُ الوُطْفُ .: وَكَانَ الصِّبا إِلْفاً فودَّعَهُ الإِلْفُ[1].

يتحدث البحترى عن توديع الصبا، وكأنه صديق يودعه أو حبيب يودع حبيبه وحديثه عن الصبا بطريق مباشر أما عن الشيب فكان طريقه الفحوى ، فقال: (فلم تحفل به الأعين الوطف)؛ لأن بإتيان الشيب يقل شعر الرأس وحاجبيها، فيقول إنه يأتى ولم تفرح أو تحفل به الأعين التى كثر فيها شعر حاجبيها وهذا تعبير بليغ، فقد حسد وشخص العيون الوطف وكأنها إنسان لم يحفل بهذا الشيب على سبيل الاستعارة المكنية، وهنا قدم حديثه عن الشيب بينما أخره فى أغلب الأبيات السابقة باعتبار أن الصبا بطبيعة الحال سابق على الشيب، وأن الصبا ما هو إلا راحل، أما تقديمه للشيب فى بعض

---

(١) الديوان ١٣٥١/٣، والموازنة/ ١٩٤، والقصيدة فى مدح أحمد بن محمد الطائى.
الأعين الوُطف: التى كثر فيها شعر حاجبيها، إلفا: الذى تألفه.

الأحيان ربما باعتبار حالته التى هو عليها من تقدم السن، وهذا واقع. والأفعال الماضية هى الغالبة على سطح البيت؛ لأنه يتحدث عن شىء مضى وولى دون رجعة.

وقدم الجار والمجرور (به) للتخصيص. ووصف (الأعين) بـــ (الوطف) لبيان ما هو فيه من هم وحزن قد ألم به، فقد أتاه الشيب الذى أضعفه وذهبت قوته بتوديعه للصبا فكيف يكون حاله؟.

❁❁❁❁❁

ما قاله البحترى فى العزوف عن الصبا:

قال:

إليكِ ما أَنَا عَنْ لَهْوٍ ولاَ طَرَبِ ∴ مُنِيتِ مِنِّى بِقَلْبٍ غيرِ مُنْقَلِبِ(١).

يقول: إنه لم يمنيها برجوع أيام الصبا فقلبه غير منقلب إلى هذا اللهو والطرب.

وبدأ البيت بـــ (إليك) اسم فعل أمر بمعنى ابتعدي عنى فليس هولاه ولا طربٌ. موجه إلى هذه المرأة التى يبدو أنها أنكرت عليه شيبه وتذكره بأيام الصبا، فتحس فى هذا بلهجة قوية وقاطعة، وتشم فيه رائحة الإبهام الذى يدعو إلى التشويق فما هو الشىء الذى يأتى به، فيصرح لها ويزيل هذا الإبهام بقوله: (ما أنا عن لهو ولا طرب) فقدم الفاعل (أنا) والتقدير: ما أنا أبحث عن لهو ولا طرب، ثم أنه أدخل حرف النفى على الفاعل، لينفى عن نفسه الرجوع إلى هذا اللهو والطرب وكنى بهذا عن أيام الصبا.

يقول الإمام عبد القاهر عن بلاغة التقديم:

(هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعه ويفضى بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شىء وحول اللفظ من مكان إلى مكان) دلائل الإعجاز/١٠٦

---

(١) الديوان ١١٩/١، فى مدح إسماعيل بن بلبل.

وقوله: (بقلب غير منقلب) كناية عن الشيب، وقد ذكر الصبا والشيب هنا بطريق الفحوى، وتميز ا لخطاب هنا بالخصوص، وكأنه سجل لك الحوار الذى دار بينهما، فسجل لك أنه لم يمنيها بشىء من هذا، وإنما ترك حياة اللهو والطرب إلى حياة التعقل والخبرة ووضح وأكد هذا المعنى بالجناس الناقص فى قوله (بقلب غير منقلب).

❁❁❁❁❁

وقال يمدح:

أَطَاعَ عَاذِلَهُ فِى الحُبِّ إِذْ نَصَحَا ∴ وكَانَ نَشْوَانَ مِنْ سُكْرِ الصِّبَا فَصَحَا[1].

يقول: إنه فى أيام الصبا انقاد لعاذله، وقد خلص له فى النصح، فكان طوع هواه وحبه، وكأنه سكران من شدة الحب فى صباه، ولما أصابه الشيب صحا قلبه وذهب عنه الغيم، وترك الصبا.

تصوير البحترى هنا يختلف عن تصوير أبى تمام.

فالبحترى يصور بطريق التشبيه التمثيلي حالته فى الصبا وقد تعلق بالحب وأطاع حبيبه، وعاش أيام الشباب فى نشوة فلما جاءه الشيب أفاق بحال السكران الذى ذهب عقله فلما أفاق تنبه لحالته. فقال: (وكان نشوان من سكر الصبا فصحا).

وعبر بـــ (صحا) دون غيره؛ لأن الإفاقة من الحب لم يسمع فيه إلا (صحا) ولأنها نقيض (السُكر) والبحترى يوضح ويبين أن المرء يكون أكثر تعلقاً بالحب فى أيام الصبا أكثر منها فى أيام الشباب وأيام الشيب.

وزاد من جمال التصريع الجناس اللاحق[1] بين (نصحا، فصحا)

---

(١) الديوان ١/٤٤٠، والموازنة٢/ ١٩٤، وفى الديوان سكر الهوى، والبيت مطلع لقصيدة فى مدح الفتح بن خاقان، طَاعَ: الطوع نقيض الكره، أى: انقاد له/ اللسان/ طوع، عَاذِلُ: عذل من اللوم، سكر: السكران خلاف الصاحى والسُكْرُ: نقيض الصَّحْو، والسكر ثلاثة: سُكر الشباب، وسُكر المال، وسُكر السلطان، نَصَحَ الشىء: خَلَصَ والناصحُ: الخالص من العسل، وغيره. نشوان: أى: سكران بين النشوة/ اللسان/ نشا، صحا: ذهاب الغيم، وذهاب السُكر وترك الصبا والباطل يقال: صحا قلبه وصحا السكران من سكره، ذهب سكره وكذلك المشتاق/ اللسان/ صحا.

والطباق بين (سكر، صحا)، وحسن النظم مع القافية المطلقة المنتهية بحرف المد وكأنه يتنفس مما هو فيه من لهو وطرب إلى الحكمة والإفاقة والراحة.

بينما تجد أبا تمام ينفى انشغاله بأيام الصبا والشباب فلم يعد يتعلق بها وقد بنى بيته على تكرار النفى المتضمن الإيجاز البديع، والعطف بالواو، وجمع بين عدة ألوان بديعية مراعاة النظير وصحة التقسيم والتصريع، راجع قوله: أبى: فلا شنباً يهوى[٢].. ..

❁❁❁❁❁

وقال يمدح بن مرٍّ الطائى:

فِى الشيبِ زَجْرٌ لَهُ لَوْ كَانَ يَنْزَجِرُ .: وَوَاعِظٌ مِنْهُ لَوْلاَ أَنَّهُ حَجَرُ[٣].[*].

ربما أراد البحترى أن يرمز بقوله (فى الشيب) إلى الإحساس بالمسئولية والطموح إلى تحقيق الآمال، ومن ثم انقضاء زمن الصبا الذى لا يحس فيه الفتى بالمسئولية، ويغدو ويلهو دون اهتمام بما تأخذ منه الأيام، أما هو هنا فقد عزم على مفارقة عبث الصبا.

بدأ بالجار والمجرور (فى الشيب) وقدمه على المبتدأ النكرة (زجرٌ له) وذلك لحسن النظم وبلاغته المؤثرة فى النفس ففى حسن النظم ما تراه أنه لا يجوز الابتداء بالنكرة فقد صوغه بتقديم الجار والمجرور، أما بلاغته لبيان حالته من الشيب وأنه عزم على مفارقة عبث الصبا، وانصرف إلى دروب الجد والسعى الدؤوب لفرض مكانته فى أجواء المجد وأروقة العظماء، فكأنه يذكر الشباب ويعظهم بأيام الشيب ولهذا قدمه.

---

(١) الجناس اللاحق : أن يختلف فى أنواع الحروف ، اشتُرط ألا يقع الاختلاف بأكثر من حرف ، ثم الحرفان إن كانا متقاربين سمى الجناس مضارعا، وإ، كانا غير متقاربين سمى لاحقا) بغية الإيضاح ٤/٧١.

(٢) ينظر ص ١٠ من البحث.

(٣) الديوان ١/٩٥٣، الموازنة٢/ ١٩٤.

زَجْرٌ: الزجر المنع، والنهى والنهرُ/ اللسان/ زجر، وَاعِظٌ: الوعظ والعظة والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب.

(*) تحليل هذا البيت وما بعده، ينظر: مدخل إلى كتابى عبد القاهر، د/ محمد أبو موسى/٣٦٠ للإفادة.

وبناء هذا البيت على تكرار أسلوب الشرط الذى صيَّر الجملة إلى النفى ففى قوله (لو كان ينزجر) كأنه قال ليس فى الشيب زجر له؛ لأنه لا ينزجر.

ولو حرف امتناع لامتناع، فالجواب ممتنع لامتناع الشرط، والجواب هنا محذوف دل عليه المذكور الذى هو فى الشيب زجر له، فأنت ترى أن نظم البحترى شديد الإيجاز والتركيز، مع إفادة التوكيد والإثبات.

والشطر الثانى بنى على هذا المنهاج، فكأنه قال وفى الشيب واعظ منه لولا أنه حجر، والسبك فى البيت كله سبك واحد.

ثم أنه فى الشطر الثانى تدرج إلى النغمة الهادية الأقل فى الشدة فانتقل من الزجر إلى الوعظ، فلم يتأثر بالزجر الذى هو أشد من الوعظ ولهذا ختم الكلام بقوله: (لولا أنه حجر) ولم يقل: (لولا أنه لم يتعظ) مثلا لأن التعبير بالحجر أبلغ وأشد فى عدم الاستجابة والقطع بأنه لا أمل فيه، فهو حجر أصم وأعمى وأبكم، ولهذا أكد الأسلوب بـ (أنه) والمقصود بيان فرط تهالكه فى الصبوة.

وقد ذكر الشيب هنا بطريق مباشر أما الشباب فقد ذكره بطريق غير مباشر.

❁❁❁❁❁

وقال:

أنِزَاعاً فِى الحُبِّ بَعْدَ نُزُوعٍ .: وَذَهاباً فِى الغَىِّ بَعْدَ رُجُوعٍ؟[1].

البحترى بنى بيته هنا على الاستفهام المتضمن معنى الإنكار والنفى والتعجب من حاله، فهو يتحدث عن الشيب والشباب، وهل هو يستجيب للرجوع والنزوع بعد أن أصابه الشيب، فليس هناك رجوع إلى أيام الصبا بعد الشيب.

وكأن هذه الافتتاحية تؤكد افتتاحية (فى الشيب زجر له.. ..) بطريق الفحوى وكأنه يزجره ويعظه ولكن بطريق الاستفهام فيقول له أنزاعاً، اذهاباً قوله (أنزاعا فى الحب) كناية عن أيام الصبا والشباب الذى يكون فيه المرح

---

(١) البيت استهل به قصيدة فى مدح محمد بن يحيى الواثقى ١٢٧٩/٢، والموازنة١٩٥/٢، أنزاعا: المرح والنشاط والاشتياق، نزوع: الكف والانتهاء. ويقال للإنسان إذا هوى شيئا ونازعته نفسه إليه.. .. ونزع نزاعا، حن واشتاق اللسان/ نزع، ذهب: السير والمرور، الغىّ: الضلال والخيبة، رجوع: رجوعا انصرف مصدر. اللسان/ رجع.

والنشاط، ثم ثنى بالنزوع بقوله: (بعد نزوع) كناية عن إصابته بالشيب.

وبناء الشطر الثانى على منهاج الشطر الأول فكأنه يقول أتذهب ذهابا فى الغى فأنت ترى الإيجاز البليغ، والكناية عن التهالك فى الصبوة و (بعد رجوع) كناية عن الالتزام والتعقل وترك أيام اللهو والطرب.

وهنا امتزجت المقدمة الغزلية بمطارحات الشيب والشباب للإيحاء بأنه قد فارق عبث الصبا وطيش الشباب، وهيأ نفسه لمنادمة الملوك ومجالسة الوجهاء وأرباب السلطان فكانت المناسبة بين هذه المقدمة وغرض المدح.

وهذا من بلاغة النظم.

❁❁❁❁❁

وقال:

إنِّى تَرَكْتُ الصِّبَا عَمْداً فَلَمْ أَكَدِ ∴ مِنْ غَيْرِ شَيْبٍ ولا عَذْلٍ ولا فَنَدِ[1].

يقول: إنه لم يترك الصبا بسبب الشيب ، بل هو المتعمد لتركه حتى لو لم يدركه الشيب.

فقد صرح البحترى بالعزوف عن الصبا وأكد أنه تركه بقوله: (إنى تركت الصبا) فقد خص نفسه بإضافة ياء التكلم إلى (إن) التى هى أقوى حروف التأكيد والإثبات، والتعبير بـ (تركت) دون غيره، توحى بالتخلية التامة، وفيه تشخيص للصبا فقد شبهه بالشىء الذى يترك أو الإنسان الذى تركه وانصرف عنه بطريق الاستعارة المكنية، ثم أنه يؤكد هذا المعنى بقوله: (عمداً) أى: قصداً باختياره، وفى هذا ما فيه من المبالغة ثم يؤكد هذا الانصراف بطريق الجزم والحسم فيقول (فلم أكد).

وكأنه لم يتحمل هذه الحياة، وإنما يريد أن يعيش واقعه وحياته الحقيقية وهى حياة الشيب التى بها الالتزام، وبها لوم النفس والحزن والعجز.

وكأنه يقول لنفسه: ألم يكفيك من حياة اللهو والعبث فانصرفى وانشغلى بحياة الشيب التى بها يكون قرب نهاية عمر الإنسان، ولهذا قال: (من غير

---

(١) الديوان ١/٥٧٣، الموازنة٢/ ١٩٥، والقصيدة فى مدح أبى نهشل، عذل: اللوم، فند: الخرف، الكذب، العجز.

شيب ولا عذلٍ ولا فندِ).

وهذا البيت فى صياغته ومعناه من أقرب أبيات البحترى لبيت أبى تمام:

أبى : فلا شنبا يهوى ولا فلجا .: ولا أحوراراً يراعيه ولا دعجا.

مع أن أبا تمام لم يصرح بالشباب ولا الشيب بل تحدث عنهما بطريق غير مباشر بقوله: (أبى.. ..) أى: أنه امتنع وترك حياة الصبا وتلاحقت أداة النفى وتكررت أربع مرات مع أداة العطف ثلاث مرات مما يؤكد عزوفه عن الصبا، وأنت تحس فى هذا النظم أن الشاعر قد مل حياة اللهو والعبث، وأنه لا مفر من الشيب.

بينما تجد البحترى صرح بالشيب والشباب وصرح بالترك وأكده أكثر من مرة وهذا من تمام المعنى، وأنت تجد اتفاقا بين الشاعرين من حيث العطف بـــ (الواو) والنفى بـــ (لا).

واختلف الشاعران من حيث التصريح بحديث النساء وعدمه~.

ومهما يكن من شىء فكل افتتاحية مناسبة لما قيلت له وهذا من حسن النظم.

المبحث الثانى
ما جاء عنهما فى وسط الكلام
من ذكر الشيب والشباب، ووصف الشيب وذمه

وصف الشيب وذمه:

قال أبو تمام: يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى (من الطويل):

غَدَا الهَمُّ مُخْتَطّاً بِفَوْدَىَّ خُطَّـــــةً ∴ طَرِيقُ الرَّدَى مِنْها إلى المَوْتِ مَهْيَعُ
هُوَ الزَّوْرُ يُجْفَى والمَعَاشِرُ يُجْتَوَى ∴ وذُو الإلْفِ يُقْلَى، والجَدِيـدُ يُرَقَّـعُ
لَهُ مَنْظَرٌ فِى العينِ أَبْيَضُ نَاصِـعٌ ∴ ولكنَّـــه فِى القلبِ أَسْـــوَدُ أَسْـفَعُ
ونحنُ نُرَجِّيه على الكُرْهِ والرِّضَا ∴ وأَنْفُ الفَتَى مِنْ وَجْهِهِ وهُوَ أَجْدَعُ[1].

❁❁❁❁❁

يقول: إن الهم كسا فودى بالمشيب مختطا فيهما سبيلا يؤدى إلى الموت أى: أنه مقدمة الموت، ثم يصف الشيب ويقول: إنه الزائر الذى تصد عنه والعشير الذى تكرهه، والأليف الذى لا يطاق، وهو الجديد لبياضه والذى ترفعه بالصباغ، والشيب يظهر فى بياض لكنه يخلف فى النفس سواد اليأس؛ لأنه نذير الهرم فالموت، ونحن على سخط راضون له؛ لأنه لابد منه وإن كنا نبغضه، فمثله مثل الأنف الأجدع يعلم الفتى أنه قبيح وقد ثبت أنه من وجهه[2].

بدأ بالجملة الفعلية (غدا الهم مختطا بفوديه.. ..) لتحقق الوقوع فقد أصابه الشيب واختلط بفوديه بسبب الهم الذى ألم به فهو بداية الموت أو أنه ينبه على نهاية العمر، فيقول: (خطة طريق الردى منها إلى الموت مهيع).

وهذا البيت شديد الاختصار، وهو أم المعنى فى الأبيات الثلاثة التى وصف فيها الشيب وذمه.

فالشاعر تخيل الهم وقد غدا وتحرك وخطط ورسم بريشته وضع

---

(١) شرح ديوان أبى تمام ٣٤٧، ٣٤٨، والموازنة٢/ ١٩٦، الفوْدَ: جانب الرأس مما يلى الأذنين، مَهْيَعُ: المهيع الطريق الواسع، الزَّوْرُ: الزائر، يجتوى: هنا يكره، يقلى: يكره، أسفع: الأسْفَعُ الشديد السواد، نزجيه: نحمله ونسوقه على أن يسير.

(٢) شرح ديوان أبى تمام لأيليا الحاوى/ ٣٤٧، ٣٤٨.

خطوطاً بيضاء بفوديه، فقد شخص وجسد الهم وكأنه إنسان يخطط ويرسم بنظام بديع، والتعبير بـــ (غدا) مناسبة للنظم، فهذا الهم سعى إليه بالنهار وخطط، وكأنه استمد اللون الأبيض من النهار، مع أن الهم المتخيل والمفترض فيه السواد وليس البياض، ولكن هم الشاعر هنا يختلف.

ومن هذا المعنى الأم فى ذم الشيب وأنه أول طريق الموت ينطلق الشاعر إلى ذم الشيب وأنه جاء رغماً عنه.

يقول: (هو الزور يجفى) و (المعاشر يجتوى) و (ذو الإلف يقلى) و (الجديد يرقع) بناء هذه الجمل الأربعة واحد، فقد تقدم نائب الفاعل على الفعل المبنى للمعلوم. أى: يجفى الزور أى هو، وعرف هذه الأسماء مرتين، بالضمير والألف واللام لإيضاح وتقرير وتأكيد بغضه للشيب وعطف بين هذه الجمل بالواو للتشريك فى الحكم الإعرابى، والتوسط بين الكمالين حيث الاتفاق فى المسند إليه والتناسب بين المعانى والاتفاق فى الجمل الخبرية ويواصل كرهه وذمه للشيب فيقول: إن منظره الأبيض الناصع يسر العين وترتاح له لكنه ليس كذلك فى القلب وإنما هو شديد السواد وهذا تمثيل للشيب فقد صوره مرة بالبياض الناصع الذى يسر العين ومرة بالأسود الآنقع الذى أحزن القلب ، فقد جعل الشاعر الشئ أسود أبيض فى حال ، وجمع بين الضدين فى آن واحد، مما يؤثر فى النفس أشد تأثير فيعمل عمل السحر فى الالتئام بين الأضداد.

يقول الإمام عبدالقاهر فى "مواقع التمثيل وتأثيره فى النفس" (وهل تشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين حتى يختصر لك بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب ... ويريك التئام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين، كما يقال فى الممدوح هو حياة لأوليائه، موت لأعدائه....) [١]

ثم أنه يؤكد هذا الكره والبغض بهذه الصورة الحسية فيقول:

ونحن نزجيه على الكره والرضا .·. وأنف الفتى من وجهه وهو أجدع.

---

(١) أسرار البلاغة /١٣٢.

فنحن على سخط راضون به لأنه لابد منه وإن كنا نبغضه فمثله مثل الأنف الأجدع يعلم الفتى أنه قبيح وقد ثبت أنه من وجهه وهذا على سبيل التشبيه الضمنى فجاء على هيئة دعوة ودليل أى لا غرابة فى الرضا بالشيب على كرهه له، فالفتى يرضى بأنفه الأجدع على كرهه له، مما جعل التشبيه غريباً، فليس لهما اختيار فى ذلك.

وبدأ بخطاب الخصوص فى البيت الأول (غدا الهم مختطا بفودى) وانتهى بخطاب العموم فى هذا البيت فكأنه قاعدة عامة، وهذا من تركيب المعانى، ومن براعة السبك أن يجعل الشاعر المعنى الأعم ملحقا بالمعنى الأخص وداخلا فى حيزه، وذلك من حيث علائق الجمل وهذا مما يحمده كثير من البلاغيين من أمثال حازم القرطاجنى ، الذى ذاكر أنه يكثر فى شعر أبى الطيب وآراه يكثر أكثر فى شعر زهير[١].

وأنت ترى انسجاما بين بحر الطويل ومعنى الأبيات التى وردت فى وصف وذم الشيب ، وهذا يناسب جو الحزن العميق ، فقد صور الشاعر نزول الشيب له أنه أول طريق الموت، ثم أنه يحاول أن يخفى هذا الجزع والحزن فى آخر الأبيات، كما أنك تحس بانسجام الوزن مع اللفظ والمعانى فى لطف وخفاء ، وهو بذلك يكسب الأداء جلالة وحلاوة ودقة وتؤدة تلائم مقام الأسف على فقدان الشباب وظهور الشيب، كما انتهت القافية بحرف الروى (العين) المشبع بالضمة، فناسب هذا مقام الحزن والألم.

هذا وبحرالطويل من أطول بحور الشعر العربى وأعظمها أبَّهة وجلالاً، وإليه يعمد أصحاب الرصانة ، وفيه يفتضح أهل الركاكة والهجنة، ويتميز بالحلاوة والرقة واللين، وهو معتدل حقاً ، ونغمة من اللطف بحيث يخلُص إليك وأنت لاتكاد تشعر به.[٢]

❁❁❁❁❁

(١) ينظر: مدخل إلى كتابى عبدالقاهر/٣٣٩ بتصرف.

(٢) ينظر : المرشد فى فهم أشعار العرب وصناعتها ١/٣٦٢/ عبدالله الطيب.

وقال (من الخفيف):

شُعْلَةٌ فِى المَفَارِقِ اسْتَوْدَعَتْنِى ∴ فِى صَمِيمِ الأَحْشَاءِ حُزْناً صَمِيمَا
يَسْتَثِيرُ الهُمُومَ مَا اكْتَنَّ مِنْهَا ∴ صُعُداً، وَهْىَ تَسْتَثِيرُ الهُمُومَا
غُرَّةً مُرَّةً أَلاَ إِنَّمَا كُنْـ ∴ ـتُ أُغَرًّا أَيَّامَ كُنْتُ بَهِيمَا
رقَّةً فِى الحياةِ تُدْعَى جَلاَلاً ∴ مِثْلَمَا سُمِّىَ اللَّدِيغُ سَلِيمَا
حَلَّمَتْنِى - زَعَمْتُمُ - وأَرَانِى ∴ قَبْلَ هَذا التَّحْلِيمِ كُنْتُ حَلِيمَا[1].

❁❁❁❁❁

يقول أبو تمام: إن المشيب اشتعل فى فوديه، وخلف فى الأحشاء الحزن والهم مثل حسرة الثكل، وهذا الشيب ولده همومه الكثيرة وهو بدوره يولد الهموم فى نفس صاحبها، ثم يقول: إن الشيب كسا لمته كلها وهو كان فتيا جميلا حين كان بهيم لشعره أسوده، فالقوم يسمون من أصيب بالشيب جليلاً، وإنما هم يخادعونه كما يخادع اللديغ المصاب بالتسمم، فيسمى سليما وهو مشرف على الهلاك، ثم يقول: إن القوم يعزونه أن الشيب جعله يتحلم ويمتنع عن الجهل ويجيب أنه كان حليما قبل أن يشيب[2].

بدأ أبو تمام أبياته بجملة (شعلةٌ فى المفارق) حيث الإبهام الذى يثير التساؤل فى النفس أهى شعلة أثارت الفرح والسرور أم أثارت الحزن والهم، فكان فيها الإبهام والخفاء، ثم أنه يزيد الإبهام إبهاما آخر بقوله:

---

(١) الديوان/ ٥٣٥، ٥٣٦، والموازنة٢/ ١٩٦، ١٩٧، والأبيات ضمن قصيدة فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف وروى (غرة بُهْمة) فى البيت الثالث. ينظر أسرار البلاغة /١٣٢.
استودعتنى: استودعه مالا وأودعه إياه: دفعه إليه ليكون عنده وديعة.. .. استودعته وديعة إذا استحفظته إياها. اللسان/ ودع، صَمِيم: صميم كل شىء، وصميم الأحشاء أى: قطعها من الحزن، وحزنا صميما أى: شديدا، الأحشاء: جميع ما فى البطن من أمعاء. حزنا: نقيض الفرح وهو خلاف السرور والجمع أحزان. صعدا: الصعود: الطريق صاعدا، وصُعُدٌ والصُّعُود والصعوداء ممدود: العقبة الشاقة.
الغُرَّةُ البُهْمَةُ: أى المكتملة التى يشوبها لون سواد، الأغر: هنا الجميل. البهيم الثانية: الأسود، السليم: هو الذى لدغته الحية، وسمى كذلك تفاؤلا بالشفاء، التحليم: هنا كبير العقل والامتناع عن الجهالة.
(٢) ينظر: شرح ديوان أبى تمام /٥٣٥، ٥٣٦.

(استودعتنى) فماذا استودعت له وأين استودعته، هل استودعت له شيئا حسيا أم معنويا، ثم تأتى المفاجأة التى تكشف ما بداخل نفس الشاعر فيقول: (فى صميم الأحشاء حزنا صميما) فكشف عن المعنى المراد ووضحه وأبانه، ثم أنه استخدم أسلوب التقديم فى قوله: (شعلة فى المفارق استودعتنى) أى: استودعتنى شعلة فى المفارق؛ حيث أن الاهتمام منصب على الحديث عن الشيب وهمومه وأحزانه، فشبه ظهور الشيب فى فوديه بشعلة النار فى الظهور والبياض على تقدير أنها خبر لمبتدأ محذوف أى هى شعلة .

كما أنه قدم الجار والمجرور (فى صميم الأحشاء) على المفعول والصفة (حزنا صميماً) حتى لا يفصل بين الوديعة ومكانها، وللمحافظة على القافية المنتهية بحرف المد، الذى يوحى بامتداد الحزن والهم حتى أنه استقر أخيراً فى أحشائه والشاعر تأثر فى البيت الأول بقوله تعالى(واشتعل الرأس شيبا) مع الفارق، فالشيب فى الآية شمل جميع الرأس، أما عند الشاعر فقد أصاب جزء من شعره وهو فوديه، فهو فى بداية الشيب، وعبر بـــ (شعلة) ربما تنتشر بعد ذلك فى جميع الشعر، فكان التعبير بها أتم وأوفى للمعنى، ثم التعبير بالجناس فى قوله (صميم ، صميماً) فالأولى بمعنى القطع والثانية بمعنى الحزن فقد طلبه المعني وسعى إليه سعيا فزاده حسنا وبلاغة، ثم أنه جسد الحزن الشديد الذى فعل بالأحشاء ما فعل من التقطيع وكأنه آله حادة تقطع الأحشاء، فهل هذا يخلف إلا الآلام والحسرة والحزن.

وأجمل المعنى فى البيت الأول، ثم يفصله فى الأبيات التالية أى: أن المعنى الأم تراه فى البيت الأول ففى البيت الثانى يقول:

يستثير الهموم ما أكتن منها ∴ صعدا وهى تستثير الهموما

فالهم يجلبها وهى تجلب الهم، أى: الهم يجلب الشيب، والشيب يجلب الهموم فصارت هموماً على هموم، حتى خيل أن الشاعر ليس عنده مساحة للفرح والسرور من كثرة الهموم التى ولدت الشيب والتى ولدها الشيب

وعبر عن هذا المعنى برد العجز على الصدر، وتجسيد الهموم وكأنها شيء حسى كالرياح مثلا فقد حركها الشيب وأثارها، ثم أن هذه الهموم لا تفارقه ولا يفارقها ولهذا عبر بالمضارع بحروفه الزائدة فدل على كثرة الهموم ولهذا عبر بالجمع.

ثم يؤكد ذمه للشيب فى البيت الثالث (غرة مرة.. ..) حيث شبه هذا الشيب بالغرة فى جبهة الفرس ولما كانت الغرة المفترض فيها الجمال احترس بقوله:(مرة) فقد أرسل حاسة التذوق مكان حاسة البصر؛ حيث جعل هذا الشيب (غرة) كأنه طعام مر على سبيل التخييل، وهذا من تراسل الحواس مما زاد الأسلوب قوة وبلاغة.

ويؤكد ذم الشيب بطريق القصر فيقول: (ألا إنما كنت أغرا أيام كنت بهيما) وكأن هناك من وصف شيبه بالغرة، فكان رده بأنها غرة مرة، ثم يؤكد أنه كان جميلا فى شبابه عندما كان أسود الشعر وتروى (غرةً بُهمْةً) أى سوداء كالليل البهيم.

وذكر عبدالقاهر هذا البيت فى (مواقع التمثيل وتأثيره فى النفس) لأنه جعل الشيء كالمقلوب إلى حقيقة ضده فى قوله (ألا إنما كنتُ أغرَّ أيام كنتُ بهيما) [١].

وفى البيت الرابع يؤكد كرهه للشيب حيث شبه من يخادعوه ويصفوه بالجليل بخداع اللديغ وهو مشرف على الهلاك، وعبر بقوله (تدعى) التى توحى بعدم اعترافه بهذا الوصف وما هو إلا مخادعة، ثم يؤكد هذا الذم فى البيت الأخير ويجيب من يصفه بالحلم فى شيبه أنه كان حليما قبل أن يشيب، وقوله (زعمتم) إطناب كان لابد منه لبيان خداعهم وكذبهم فى اعتقاده، وغلب ضمير المتكلم على سطح هذه الأبيات حيث أنه يتذكر همومه التى أثارها شيبه.

---

(١) أسرار البلاغة /١٣٢.

مناسبة المطلع بغرض القصيدة:

لما بدأ ببكاء الديار وبيَّن أن ربوعهم لم تُجب سُؤْله، وعاد منها سقيما، وقد كان شبابه مثل الروضة من السعادة وحين تولى عنه الأحبة أملقت تلك الروضة وعمها الهشيم، وأصابه الشيب فى فوديه ومن ثَمَّ الهموم والأحزان وكالعادة فهو يذهب إلى الممدوح ليذهب عنه هذه الهموم والأحزان بكرمه وجوده وشجاعته، فكان ترتيب المعانى والأفكار وهذا من البلاغة وحسن النظم.

وانت ترى الهمس والحوار فى هذه الأبيات ، يضاف إلى هذا الفخامة ووضوح النغم والتفعيلات والدندنة التى توافقت مع بحر الخفيف ، فالألفاظ لينة رقيقة، ويتميز هذا البحر بالاعتدال ووضوح النغم ، بحيث لا يبلغ حد اللين ولا حد العنف ولكن يأخذ من كل نصيب.

والقافية الممدودة هناكان لها أثرها العظيم فى نفس الشاعر حيث إنه يريد متنفسا من هذا الجو الحزين الذى قطع أحشائه.

❁❁❁❁❁

وقال البحترى (من الطويل):

وكُنْتُ أُرَجِّى فى الشبابِ شَفَاعَةً ∴ وكيفَ لِبَاغِى حَاجَةٍ بِشَفِيعِه

مَشِيبٌ كَبَثَّ السِّرَّ عَىَّ بِحَمْلِه ∴ مُحدِّثُهُ أَوْ ضَاقَ صَدْرُ مُذِيعِه

تَلَاحَقَ حتَّى كَادَ يَأْتِى بِطِيئُهُ ∴ لِحَثِّ اللَّيَالِى قَبْلَ أَتْى سَرِيعِه(١).

❁❁❁❁❁

يقول: إننى كنت أتمنى الشفاعة من الشباب أن يبقى، ولكن كيف يطلب الشىء الضال المستحيل؛ لأنه لابد من الشيب أن يأتى، فهو كالذى يفشى سرا عىَّ بحمله محدثه أو ضاق به صدر مذيعه، ثم بعد ذلك تلاحق حتى انتشر من كثرة الهموم.

بدأ بجملة فعلية (وكنت أرجى فى الشباب شفاعة) وهى تفيد عدم تحقيق

---

(١) ديوان البحترى ٢/١٢٧٥، ١٢٧٦، والموازنة ٢/١٩٧، ١٩٨، والأبيات ضمن قصيدة فى مدح محمد بن طاهر.

الباغى: الذى يطلب الشىء الضال.

أرجى: الرجاء من الأمل نقيض اليأس، شفاعة: يشفع شفاعة وتشفع: طلب.

رجائه وأن الشباب لم يستجب له، وقدم الجار والمجرور (فى الشباب) لبيان تحسره على أيام الشباب، وأنه فى حاجة إليه، وكأنه وقع فى مأزق أو ذنب، وهو يطلب منه الشفاعة ليخلصه مما هو فيه، ولكن دون جدوى، وأكد هذا المعنى بقية البيت وتلاءم معه وكأنه يدعوك لتتخيل كيف يكون حاله مع شفيعه وهو يطلب منه الشيء المستحيل ولهذا عبر بأداة الاستفهام (كيف) التى لبيان الحال ليوحى لك بحيرته وقلقه، وبهذا شخص لك الشباب وكأنه إنسان يطلب منه حاجة وهو يعلم أنها مستحيلة، ولكنه لشدة الرغبة فيه عبر بلفظ (أرجى) الذى هو الطلب والرجاء للشيء الممكن، وقد أوهم نفسه أن هذه الشفاعة ممكنة، ولكنه أفاق مما هو فيه وتأكد أن هذه الشفاعة ممتنعة وغير ممكنة بقوله: (وكيف لباغى حاجة بشفيعه).

وهذا البيت هو جذر المعنى وهو أم المعانى التى جاءت بها الأبيات بعده فيصور المشيب بانتشار السر فى كل مكان الذى عى به صاحبه أو ضاق به صدره، وتجد تلاءما بين هذا البيت والذى قبله فقد طلب الشفاعة التى لا رجاء فيها وضاقت نفسه، وأنه طلب هذه الشفاعة من الشباب فكأن بينهما سرا ولكنه لا يستطيع إخفاءه وضاقت نفسه فأذاع هذا السر وهو (الشيب) ثم ما لبث أن تلاحق (تلاحق حتى كاد يأتى بطيئه)..

فهو يصف هذا الشيب ويؤكد سرعة انتشاره وكأنه لا يستطيع أن يقف أمامه، وبهذا شخص الشيب بقوله: (تلاحق) و(يأتى) ثم ختم أبياته بقوله: (لحث الليالى قبل أتى سريعه) كناية عن الهموم التى ألمت به وكانت سببا فى شيبه.

وأنت ترى ترتيب المعانى على وفق ترتيب الألفاظ، فترى كيف تخير الماضى (وكنت أرجى)، (ضاق)، (تلاحق، كاد)

وكيف اختار من معانى النحو ووضع كلا فى موضعه وأصاب، (وهذا من حسن الدلالة وتمامها فيما كانت له دلالة؛ لأن حسن الدلالة ليست معنى ولا لفظاً، وإنما هى دلالة الألفاظ المنظومة نظما خاصا على المعانى، وهذه

هى البلاغة)[١].

والمناسبة بين هذه الأبيات والمقدمة واضحة جلية فقد بدأ القصيدة بدليل حسى على بكاء الأطلال وعدم رجوعها مرة أخرى كما لا يُرجى فى الشباب شفاعة فلا يرجع مرة أخرى.

يقول:

تُرى الليلُ يَقْضى عُقبةً من هزيعة ∴ أو الصبحُ يجلو غرةً من صديعه.
أو المنزلُ العافى يَرُدُّ أنيســـــهُ ∴ بكاء على أطــلاله وربوعــه.

ثم يقول:

وكنت أرجّى فى الشباب شفاعة ∴ وكيف لباغى حاجة يشفيعه

فكما أن الليل لا يقضى عقبه من هزيعه ولا الصبح يجلو غرة من صديعه ولا المنزل العافى يُرد أنيسه وإنما يكون البكاء على الأطلال، ولا يرجى فى الشباب شفاعة وإنما هو الشيب الذى تلاحق وأسرع، فاترك كل هذا وشُد الرحال إلى الممدوح فعنده الرجاء والعطاء. وهكذا تجد ترتيب المعانى وهو من البلاغة.

واختار البحترى بحر الطويل ليناسب جو الأبيات من وصفه ونمه للشيب، فهو فى مأزق ، فقد حلَّ به الشيب، وتوجه إلى الشباب يطلب منه الشفاعة ولكنها دون جدوى، ثم ترى التناسب بين صوره وأوزانه، وجاء الروى متحركا، وهذا يناسب بحر الطويل، فهو ميدان التأمل والبلاغة الحرة.

❁❁❁❁❁

وقال البحترى (من البسيط):

رُدِّى عَلَىَّ الصِّبَا إنْ كُنْتِ فَاعِلَةً ∴ إنَّ الصِّبَا لَيْسَ مِنْ شَأنِى وَلا أرَبِى
جَاوَزْتُ حَدَّ الشَّبَابِ النَّضْرِ مُلْتَفِتاً ∴ إلى بَنَاتِ الرَّدَى تَرْكُضْنَ فى طَلَبِى
والشَّيْبُ مَهْرَبُ مَنْ جَارَى مَنِيَّتَهُ ∴ ولا نَجَاءَ لَهُ فِى ذلك الهَرَبِ
والمَرءُ لوْ كَانَت الشِّعْرَى لَهُ وَطَنًا ∴ صُبَّتْ عَلَيه صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ كَثَبِ[٢]

❁❁❁❁❁

---

(١) مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى/ ٣٤٧، ٣٤٨.

(٢) الديوان ١/١١٩، والموازنة٢/ ١٩٨، بنات الرَّدى: الحسن والجمال.

بدأ البحترى أبياته بالجملة الفعلية (رُدِّى علىَّ الصبا) يأمر هذه المرأة أن تعيد عليه أيام الصبا والغرض من الأمر إما التعجيز؛ لأن رجوع أيام الصبا أمر مستحيل، وإما الاستهزاء بهن قبل أن يستهزأن به، وقدم الجار والمجرور (علىَّ) لإفادة قصر هذا الأمر عليه وحده، وأكد هذه الجملة بالشرط (إن كنت فاعلة) وحذف الجواب لدلالة الجملة السابقة عليه وهذه الجملة فى غاية الاختصار والتركيز.

ثم يؤكد أن الصبا (اللهو والطيش) ليس من شأنه ولا يريده وترى تسلسلاً فى الكلام فقد ترتب على بعضه فترى الترتيب فى المعانى.

فقد تجاوز حد الشباب تاركاً الفتيات الحسناوات اللاتى تركضن فى طلبه ثم يعلل هذا بأن الشيب منهن ومن الموت ولكنه لا يستطيع أن ينجو من هذا الهرب ويؤكد هذا المعنى بقوله: (والمرء لو كانت الشعرى له وطنا.. .. صب عليه صروف الدهر من كثب) وهذا من المبالغة المقبولة ففيها غلو ولكنه قربها بـــ (لو) فلو أنه هرب إلى هذا الكوكب فلا نجاة من المصائب والهموم وقد صور الهموم والمصائب بالمطر الذى لا ينقطع بقوله: (صب عليه.. .) وكعادة البحترى تراه قد صرح بالصبا والشباب والشيب، واهتم باستخراج الصور والمعانى.

والمناسبة بين المقدمة وهذه الأبيات هى إصابته بالهم والحزن ثم ذهابه - فقد ألم به الهم والحزن عند إصابته بالشيب ولما ذهب إلى الممدوح ذهب عنه الهم والحزن، فكانت المناسبة فى حسن النظم والترتيب وكأن حركة المعنى تتواصل وتمتد فى ثنايا القصيدة.

وتميزت هذا الأبيات بالصد والعنف وقد تلاءم هذا مع البحر البسيط، والقافية المطلقة المنتهية بحرف الباء المشبع بالياء، وكأن البحترى يريد أن يؤكد تركه لأيام الصبا والشباب ، فلا يهتم بالحسناوات اللاتى تركضن فى طلبه، وكل هذا فى سلاسة ورقة.

وقال يمدح على بن محمد بن الفياض (من الخفيف):

لابسٌ منْ شَبيبَةٍ أمْ نَاضٍ .: ومَليحٌ منْ شَـــيبَةٍ أمْ رَاضِ؟[١].

وإذَا ما امْتَعَضْتَ منْ وَلَعِ الشَّـ .: ـيْبِ بِرَأسِي لَمْ تَثْنِ ذَاكَ امْتِعَاضِي[٢]

لَيْسَ يَرْضَى عَنِ الزَّمَانِ مُرَوٍّ .: فِيهِ إلاَّ عَنْ غَفْلَةٍ أوْ تَغَـاضِ[٣].

بَاكَرَتْ لِمَتِّي وَنَاكَرْتُ مِنْهَـــا .: سُوْءَ هَذِي الأبْدَالِ والأعْوَاضِ[٤].

شَعَرَاتٌ أقَصُّـهُنَّ وَيَرْجِعْ .: ـنَ رُجُوعَ السِّهَامِ فِـي الأغْرَاضِ[٥]

وأبَتْ تَرْكِيَ الغُدَيَّاتِ والآ .: صَالِ حَتَّى خَضَبْتُ بالمِقْـرَاضِ[٦].

غَيْرَ نَفْعٍ إلاَّ التَّعَلُّلَ مِنْ شَخْـــ .: ـصٍ عَـــدُوٍّ لَـمْ يَعْدُهُ إبْـغَاضِي

وَرُوَاءُ المَشِيبِ كالبَخْصِ فِي عَيْـ .: ـنِي فَقُلْ فِيهِ فِي العُيُونِ المِرَاضِ[٧]

طِبْتُ نَفْساً عَنِ الشَّبَابِ وَمَا سَوَّ .: وَدَ مِنْ صِبْغِ بُرْدِهِ الفَضْفَاضِ[٨].

فَهَلِ الحَادِثَاتُ يَابْنَ عُوَيْفٍ .: تَارِكَاتِي ولُبْسَ هَـــذَا البَيَـــاضِ[٩].

استهل البحترى أبياته بالاستفهام المقدر فى قوله (لابس من شبيبه أم بياض ومليح من شيبة أم راضى؟ أى: (ألابس، أمليح). وأراد التعجب والتحسر على ما فات من شبابه وألم به من الشيب، أي: هل ترضى بهذا

---

(١) الديوان ٢/١٢٠٧: ١٢٠٩، والموازنة٢/١٩٩، لابس: على التشبيه بلبس الثوب الأبيض، ناض: الأمر المكروه، مليح: المشفق، الخائف الحذر. يقال: لاح منه أى: خاف، وحاذر، وأصله الخوف من شيء له بريق ثم كثر حتى استعمل فى كل مخوف.

(٢) امتعضت: امتعض منه: غضب وشق عليه وأرجعه - امتعاضى: وجعى اللسان/ معض.

(٣) مُروٍّ: المروى: المفكر.

(٤) لِمَتِّى: اللِّمة: الشَّعر المجاور لحمة الأذن، الأخلاف والأعواض: جمع الخلف والعوض. ينكرهم علما كما تنكر عليه شيبه.

(٥) الإغراض: الأهداف.

(٦) الغُديات: جمع الغدية، تصغير الغداة، وهى: ما بين الفجر وطلوع الشمس، والآصال: جمع أصيل وهو الوقت حين تصفر الشمس لمغربها المقراض: القرض: القطع.

(٧) البخص: بسكون الخاء، قلع العين مع شحمها، والبخص بالتحريك: سقوط باطن عظم الحاجب على العين، ولحم ناتى فوق العينين أو تحتهما كهيئة النفخة..

(٨) الفضفاض: الواسع.

(٩) الحادثات: حوادث الدهر، رجل حدث، أى: شاب.. .. الأمر الحادث: المنكر الذى ليس بمعتاد.

الثوب الأبيض الذى انتزع من هذا الثوب الأسود أم أنت كاره له، أم أنك خائف من هذا الشيب أم راض.

وأنت ترى جمال الاستعارة التصريحية عندما شبه الشيب بالثوب الأبيض الذى انتزع من الثوب الأسود (الشباب).

وهذا البيت يمثل الفكرة العامة للأبيات كلها، فقد قرن فيه بين ذكر الشباب والشيب، وقد أصاب باختياره لفظ (مليح) حيث الخوف من شيء له بريق وقليل ثم كثر والمراد هنا الشيب.

ثم يواصل حديثه وذمه للشيب بطريق الشرط بـ (إذا) فيقول: وإذا ما امتعضت من ولع الشيب برأسى لم تثن ذاك امتعاضى.

فيؤكد الخوف من انتشار الشيب وبالتالى فهو يكرهه رغم حب الشيب لرأسه فلا يمنع هذا من ألمه ووجعه، وتأمل لفظ (امتعضت) وما به من ثقل، فصوت الكلمة يشعرك بالهم والألم الذى ألم به.

وقوله: (من ولع الشيب برأسى) فقد شخص الشيب وكأنه إنسان مولع ومحب لرأسه فلا يفارقها على سبيل الاستعارة المكنية، ثم يجزم ويقطع إفادته من هذا الولع، بل على العكس فهو يزيد من وجعى وألمى فيقول: (لم تثن ذاك امتعاضى) ثم أنه عبر باسم الاشارة البعيد مع أنه قريب منه لتنزيله منزلة البعيد لبغضه وكرهه له.

ثم يؤكد إنكاره وذمه للشيب بطريق الاستثناء فى البيت الثالث فيقول:

ليس يرضى عن الزمان مرو ∴ فيه إلا عن غفلة أو تغاضى

أى: لم يرض عن هذا الشيب وهمومه مفكر عاقل إلا إذا كان فى غفلة عنه أو تغاضى عنه والتفكير فيه.

ولكن بقوله: (عن الزمان) عن الشيب الذى ألم به أو أنه مجاز مرسل لعلاقة الزمانية فالشيب يأتيه فى هذه الفترة من العمر، وقصر الرضى بالشيب على الغافل أو المتغاضى على سبيل المبالغة.

ويواصل إنكاره وكرهه للشيب فيقول:

Scanned with CamScanner

باكرت لمتى وناكرت منها ∴ سوء هذى الأبدال والأعواض.

يصف كيف ألم به الشيب، وفاجأه فى الصباح الباكر وألم بلمته، والتعبير بقوله: (باكرت) كناية عن اللون الأبيض (الشيب) ثم يبين كرهه له بقوله: (وناكرت له سوء هذى الأبدال والأعواض).

ثم يصف هذا الشيب القليل بقوله: (شعرات أقصهن.. ..) فالتنكير هنا للتقليل فهى شعرات معدودة قليلة ولهذا يقوم بقصهن، ولكن دون فائدة فيرجعن ويزددن، ويصور رجوع هذا الشيب بعد قصه برجوع السهام التى تصيب الأهداف، وهذه الصورة تؤكد أن الشيب أقوى منه ولا يستطيع أن يقف أمامه.

يقول حسن كامل الصيرفى: (من شأن الغرض أن تنزع السهام منه ثم تعود إليه فى الحال، ومعنى قوله: رجوع السهام فى الأغراض، أنه لا يملك رداً لطلوع الشيب فى شعره ولا تلافيا لحلوله، فيجرى فى ذلك مجرى رجوع السهام إلى الغرض، فى أنه لا يملك مرسل السهم صده عنه ولا رده ولا إصابته، ويمكن فى ذلك وجه آخر وإن كان الأول أشق، وهو أن يريد بالأغراض المقاتل والمواضع الشريفة من الأعضاء، فكأنه يشبه رجوع الشيب بعد قصه له وطلوعه فى شدة إيلامه وإيجاعه بإصابة السهام للمقاتل والغرائض، ويحتمل وجها آخر، وهو أن السهام تنزع من الأغراض، ثم ترجع بالرمى إليها أبداً، فأشبهت فى ذلك الشيب فى قصه ثم طلوعه ورجوعه فى موضعه)[1].

ويمكن التوفيق بين هذه الأوجه، فوجه الشبه الظاهر هو صعوبة رده والتصدى له ويضاف إليه وجها عقلياً وهو شدة الإيلام والإيجاع بإصابة السهام وإصابة الشيب مما جعل التشبيه بليغاً مصيباً.

والبيت السادس امتداد للأبيات السابقة (وأبت تركى الغديات والآصال)

---

(١) ديوان البحترى ١٢٠٧/٢ -١٢٠٩، شرح الصيرفى دار المعارف ط٢، وينظر: الشهاب فى الشيب والشباب/٦٠.

(والغديات والآصال) كناية عن ملازمة الشيب له، وهذا تأكيد للبيت السابق فلا يستطيع أن يمنعه أو يرده، (وأبت تركى الغديات) تشخيص للشيب فكأنه إنسان أبى وامتنع عن تركه، والتعبير على سبيل الاستعارة المكنية وقوله: (حتى خضبت بالمقراض) يوحى بفشله فى التصدى للشيب، والتعبير بـ (حتى) توحى بالمعاناة، وقد وصل به الحال إلى النهاية، ولكنه عجز، فما كان له حيلة إلا اللجوء إلى حل أخير وهو تخضيب هذا الشيب بالمقراض، ثم يؤكد أن هذا ليس هو الحل فهو مثل التداوى من المرض أو الهروب من شخص عدو ولكنى أكرهه، وهكذا يؤكد كرهه للشيب بصور متعددة متتالية مما يكشف عن براعة وشاعرية البحترى وصنعته بالبديعة.

يقول الآمدى: (وهذا هو الذى يأخذ بمجامع القلب، ويستولى على النفس، ومن حذق الشاعر أن يصور لك الأشياء بصورها، ويعبر عنها بألفاظها المستعملة فيها واللائقة بها، وذلك مذهب البحترى وصناعته،وبهذا كثر الماء والرونق فى شعره، وقالوا لشعره ديباجة، وما قيل ذلك فى شعر أحد من المتأخرين غيره)[1].

ويواصل البحترى ذمه للشيب فيشبهه بالبخص فى عينيه، فلم يكتف بالصور السابقة ولكنه يتفنن فى تنوع الصور وهذا يكشف عن براعته، ثم يتحسر على أيام الشباب بطريق الاستعارة التصريحية فى قوله: (وما سود من صبغ برده الفضفاض) فقد استعار للشيب الثوب الأبيض الواسع وقد صبغه باللون الأسود.

وهذه الاستعارة تبرز المعنى فى صورة جديدة موجزة، فقد عبر عن كثرة شيبه وشموله لجميع رأسه بصورة أوضح وأوجز ليعبر عما بداخله من التحسر والحزن على ايام الشباب التى ولت ، ولهذا فهو يحول اللون الأبيض المكروه عنده، والمفترض فيه العكس، إلى اللون الأسود المحبوب عنده والمفترض فيه العكس ، كما هو معهود فى النفس، ولهذا عبر بلفظ

---

(١) الموازنة للآمدى٢/١٩٩.

ما سوَّد) الذى يوحى بالوحشة والحزن والألم.

ويذكر الإمام عبدالقاهر من فضيلة الاستعارة فيقول: (ومن خصائصها التى تذكر بها وهى عنوان مناقبها، أنها تعطيك الكثير من المعانى بالييسر من اللفظ...)[1].

ويختم أبياته بالاستفهام كما بدأ، وهذا من حسن النظم، فيقول: (فهل الحادثات يابن عوف تاركاتى ولبس هذا البياض).

أى: لم تتركنى نوائب الدهر ولم يتركنى الشيب، وهذا من حسن الانتهاء فهو آخر ما وقع على السمع فارتسم فى نفسه هذه النهاية وهى عدم الهروب من الشيب والعلاقة بين هذه الخاتمة وبداية الأبيات واضحة جلية فهو يسأل نفسه أهو راض عن هذا الشيب أم كاره له.

وبينهما يوضح ذمه وكرهه للشيب بهذه الأساليب والصور المتعددة فى تركيب ونظم بديع يكشف عن صنعة البحترى الفائقة.

كما أنه صرح كعادته بالشباب والشيب فكانت صوره مباشرة ليس فيها غموض أو فلسفة، ولهذا كان لشعره ديباجة كما قال النقاد، وبهذا فقد اختلفت صنعته وتصويره عن صنعة وتصوير أبى تمام.

لجأ البحترى لبحر الخفيف حيث الهدوء والهمس والحوار الذى تلمحه فى أبياته ، وقد تولدت صوره من هذا الهمس والحوار ، فكانت مناسبة للوزن والقافية، وإنْ اتفق مع أبى تمام ، إلا أنه أقوى وأشد همساً وحواراً من أبى تمام ، ولهذا أكثر البحترى فى الخفيف من أبى تمام فى الشيب والشباب.

❁❁❁❁❁

---

(١) الأسرار /٤٣.

المبحث الثالث
كره النساء للشيب

قال أبو تمام (من الطويل):

أَلَـمْ تَرَ أَرَامَ الظِّبَاءِ كأَنَّمَـــــا .·. رَأَتْ بِيَ سِيدَ الرَّمْلِ والصُّـبْحُ أَذْرَعُ
لَـئِنْ جَزِعَ الوَحْشِيُّ مِنْها لِرُؤْيَتِي .·. لإِنْسِيُّها مِنْ شَيْبِ رَأْسِيَ أَجْزَعُ (١).

❁❁❁❁❁

أبو تمام يبالغ فى تصوير كره النساء للشيب، وبنى تصويره وصنعته على التخييل والتوهم الذى هو من أدوات الشاعر الحاذق البارع.

فقد تخيل أن الظباء الحقيقية تنفر منه عندما رأت شيب رأسه فكأنما رأت ذئبا مفترساً يبحث عنها ويطالعها قبل طلوع الصبح، وزاد من حسن الصورة أنه يدعو غيره ليشاركه الرؤية بطريق الاستفهام والمراد منه الإثبات للرؤية، وإذا كان حال الظباء الحقيقية هكذا فما بال حال النساء فمن باب أولى أن يجرين من الخوف والذعر، فماذا ترى أنت فى هذا الموقف إلا الذعر والهلع والخوف، وقوله (والصبح أدرع) كناية عن اختلاط الشيب برأسه، وبناء هذين البيتين على الرؤية فقد تحققت الرؤية من هؤلاء النساء لشيبه وتحققت أيضاً منه ومن غيره عندما رأوا ذعر وخوف النساء منه.

والعلاقة واضحة بين هذه الأبيات والمقدمة والخاتمة.

أما المقدمة فقد ذكر فيها البكاء على الديار ولهذا فهو لم يتحرر من شدة الشوق والهموم، مما كانت سبباً فى شيبه الذى جزع منه الطبى الوحشى، ولهذا كانت النساء أشد جزعاً، ثم يتحدث عن الخطوب التى هى من سياسة الزمان كسياسة العبد الذليل المجدوع الأنف والأذنين، ويبين أن هذه الخطوب يصرع منها الدهر، ثم يقول: إن نك أجبرنا على الفقر والغنى وتفاوتنا فى الرزق ففيم نهذى ونردد فى الكلام؟

ويتخلص من هذه المقدمة إلى الغرض الأساسى وهو المدح فيقول: إن

---

(١) ديوان أبى تمام/ ٣٤٧، وهما من قصيدة فى مدح أبى سعيد بن يوسف الثغرى، الموازنة ٢٠٢/٢.

أرام: جمع الرِّيم، وهو: الظبى الأبيض، سيد الرحل: الذئب. أدرع: الأسود الرأس.

الأعداء يحسدونه على تفوقه فى المجد.

ثم يختم هذه القصيدة بما يناسب أولها فيقول:

فدونكها لولا لَيَانُ نسـيبها .:.لظلتْ صلابُ الصخر منها تصـدعُ

لها أخوات قبلها قد سـمعتها .:.وإنْ لـم تـزع بـى مدة فستسمعُ

الديوان/ ٣٥٢

فهو يفخر بشعره ويقول: هاك قصيدة صلبة تتحطم بها الصخور لولا لين مطلعها فى الغزل، وإن عشت سمعت منى أمثالها وهكذا تجد ترابطاً بين النسيب والشيب والشباب والمدح، وهذا من حسن النظم والبلاغة.

هذا والأبيات من بحر الطويل، الذى ناسب الكره والوحشة والحزن، وأنت هنا تشعر بمعنى الكلام ولفظه، وكأنه أغفل ناحية الموسيقا فى نظمه ، غير أنها منزوية وراء كلام الشاعر ومعانى الفاظه وصوره، وانتهت الأبيات بحرف الروى (العين) المشبع بالضمة المتحركة ، التى توحى بانسياب المعانى والصور.

❁❁❁❁❁

وقال أبو تمام [1](من الخفيف):

لَعِبَ البَيْنُ بالمَفَارِقِ، بَلْ جَـدْ .:. دَ فَأَبْـكَى تُمَاضِـراً ولَعُوبَـا

خَضَبَتْ خَدَّهَا إلى لُؤْلُؤِ العقـ .:. ـدِ دَمًا أنْ رَأَتْ شَوَاتِى خَضِيبَا

كُلُّ دَاءٍ يُرْجَى الدَّوَاءُ لَهُ إلا .:. الفَظِيعَيْنِ: مَـيِّتَةٌ، ومَشِـيبَا

يَا نَسِيبَ الثَّغَامِ ذَنْبُكَ أَبْقَى .:. حَسَنَاتِى عِنْدَ الحِسَـانِ ذُنُوبَـا

ولَئِنْ عِبْنَ مَا رَأَيْنَ لَقَدْ أَنْـ .:. ـكَرْنَ مُسْتَنْكَراً وعِبْنَ مَعِيبَـا

أَوْ تَصَدَّعْنَ عَنْ قِلًى لكَفَى بالشـ ـيْبِ بَيْنِى وبَيْنَهُـنَّ حَسِـيبَا

لَوْ رَأَى اللهُ أَنَّ لِلشَّيْبِ فَضْلاً .:. جَاوَرَتْهُ الأَبْرَارُ فِى الخُلْدِ شِـيبَا

❁❁❁❁❁

---

(١) شرح ديوان أبى تمام/ ١٥٨، والموازنة٢/٢٠٣، ٢٠٤، وينظر الشهاب/٤٩.

تُماضِر ولعُوب: اسمان من أسماء النساء، شواتى: الشواه: جلدة الرأس. الثَّغَامُ: نبت أبيض، تصدَّعْنَ: تفرقن، القِلَى : الكره.

يقول: إن طول الفراق جعل الشيب ينتشر فى مفرقيه وعندما رأته تماضر ولعوب أبكاهما، وعندما خضبت شعرى ورأتنى فبكت لؤلؤاً انحدر على خدها فخضبها بالدم، ثم يقول: إن الشيب كالموت ليس له دواء وإن وارته، ثم ينادى هذا النبت الأبيض الذى نما فى رأسه ويقول: إنك حولت حسناتى عند النساء ذنوبا فلم يجدن منى خير، ثم يعترف ويقر أن الشيب مستنكر ومعيباً، ولهذا فقد عبن النساء عليه شيبه، ثم يقول: كفى بالشيب حكما وحسيبا بينى وبينهن لكى يتفرقن عنى، ويختم الأبيات بهذا البيت الرائع الذى يكشف عن عمق معانيه وتأثره بالمعانى القرآنية فيقول لو أن الشيب خيرا لكسا به الله الأبرار فى الجنة.

بدأ أبو تمام بالجملة الفعلية (لعب البين بالمفارق) التى تفيد تحقيق هذا الشيب بالمفارق، وقد شخص البين على سبيل الاستعارة المكنية وكأنه إنسان قد عبث بالمفارق فانتشر شيبه فأبكى هاتين المرأتين (فأبكى تماضرا ولعوبا) والكلمة الأم فى هذا البيت كلمة (فأبكى) فهى تصور حزن وبكاء وكره النساء للشيب.

وقد بنى أبياته بعد ذلك على هذا البيت، ويصور فى البيت الثانى كيف يكون هذا البكاء ومتى، فتخيل دموع هذه المرأة وهى على خدها لؤلؤا، وقد خضبت خدها بلون الدم، فقد أوهمك أن هذه الدموع هى الدم نفسه فلم يأت بأداة تشبيه، وكأن هذه الدموع قد أصابت خدها بالجروح فسالت دماً، وقد خضب هو الآخر شيبه، وأنت ترى أن الخضابين قد اختلفا فتخضيب المرأة خدها كان بالدم لإظهار الحزن على ما فات من الشباب أو عندما رأت الشيب، أما تخضيبه هو فكان لستر الشيب.

وأنت تلمح ملمحاً آخر فى هذا البيت فأبو تمام أظهر جمال هذه المرأة مع أنها حزينة، فصور دموعها بحبات اللؤلؤ التى تؤثر فى خدها وتترك فيه أثر الاحمرار مثل الدم فهنا الخضاب كان طبيعيا ليس بالصبغ، وإن كشف هذا فإنما يكشف عن جمال ورقة ونعومة جلد هذه المرأة.

Scanned with CamScanner

ثم يُقر بأن هذا الشيب ليس له دواء فهو كالموت ليس له دواء، وأكد هذا المعنى بلفظ الشمول والعموم (كلُ داءٍ يرجى الدواء له إلا الفظيعين: ميتةً ومشيباً)، وجمع بين الموت والمشيب؛ لأن بالشيب يكون قرب نهاية عمر الإنسان، وأنت ترى جمال التوشيع الذى هو من طرق الإطناب.

ثم يصور فى البيت التالى الشيب بالثغام (وهو نبت أبيض) وقد شخصه فقد فعل به ذنبا عندما ذهب بحسناته وأبقى ذنوبه عند النساء.

ثم يؤكد أن هؤلاء النساء عندما يعبن الشيب فقد أعبن عيبا وأنكرن مستنكراً، فهو لم يدافع عن شيبه ولا نفسه وكأنه يعيب الشيب مثلهن وعطف بين البيت الخامس والرابع للتوسط بين المكالين، ثم عطف بـــ (أو) للتخيير فلهن ما يفعلن إما أن يعبن أو ينكرن أو يصدر منهن الاثنين.

ولهذا يؤكد أبو تمام ذمه للشيب بأسلوب الشرط فى البيت الأخير فيقول: (لو رأى الله أن للشيب فضلا.. ..) .

ثم إنك ترى النغمة الموسيقية العالية التى أحدثتها تعدد الألوان البديعية من الجناس الناقص بين (لعب، لعوبا) فعل واسم وقد اختلفا فى عدد الحروف . الطباق بين (ذنبك أبقى حسناتى عند الحسان ذنبوبا) فـــ (ذنوبا) مسببة للسيئات التى هى ضد الحسنات وهذا من الطباق الخفى الذى يستلزم الضد.

والتوشيع وهو من طرق الإطناب – فى قوله (إلا الفظيعين: ميتة ومشيبا) وهذا ما تميز به شعر أبى تمام.

وهناك من تعصب على أبى تمام وقال إن هناك تناقضا بين البكاء والعيب ويرد الآمدى على هذا ويقول: إن البكاء صدر من هاتين المرأتين (تماضرا ولعوبا) أما اللواتى عبنه هن نساء غير هاتين المرأتين، وأما (بكاء الدم) هو على سبيل المبالغة، وهو مذهب أبى تمام فى الخروج عن الحد فى كل شىء.

ويرد الشريف الرضى ويقول: إنه لا تناقض هنا ولا حاجة بنا إلى هذا؛ لأن المناقضة زائلة عن أبى تمام على كل حال؛ لأنه لا تناقض بين البكاء على

شبابه، وبين العيب منهن للشيب والإنكار له، بل هى مطابقة وموافقة [١].

وأميل إلى رأى الشريف الرضى؛ لأنه المناسب للغرض والتصوير؛ ولأن أبا تمام بنى أبياته على هذين المعنيين (البكاء والعيب) فقد بدأ البيت الأول بـــ (البكاء)، فقال: (فابكى تماضرا ولعوبا) ثم صور فى البيت الثانى البكاء بحبات اللؤلؤ.. .. ثم بعد ذلك ذكر عيب وإنكار النساء للشيب فقال: (ولئن عبن.. ...) وكرر حديث العيب ثلاث مرات فى البيت الخامس، وذكر كره النساء للشيب، وختم البيت الأخير بحديث العيب، فقال: (لو رأى الله أن للشيب فضلا.. ..) أى: ليس الشيب فضلا بل هو عيب.

وجاء بالدليل على ذلك فقال: (جاورته الأبرار فى الخلد) فترى أنه بدأ الأبيات بالبكاء وختمها بالعيب فكانت المناسبة والموافقة والمطابقة بينهما وهذا من حسن النظم والترتيب للمعانى.

❁❁❁❁❁

ثانيا: كره النساء للشيب عند البحترى:

قال البحترى (من الوافر):

تَعِيبُ الغَانِيَاتُ عَلَىَّ شَيْبِى ∴ ومَنْ لِـــى أَنْ أُمَتَّعَ بالمعيـــبِ

ووَجْدِى بالشَّبَابِ وإِن تَقَضَّى ∴ حَمِيدًا دُونَ وَجْدِى بِالمَشِـــيبِ[٢].

البحترى هنا يختلف عن أبى تمام فى نظرته لعيب النساء للشيب، فالبحترى لا يهتم بقولهن عندما عبن عليه شيبه، فهو لا يعده عيبا بدليل أنه يمتع نفسه به، وقد جعل وجده بالشباب أقل من وجده بالمشيب؛ لأنه يفارق الشباب لا محالة بالشيب وهو على قيد الحياة ولا يفارق الشيب إلا بالموت.

وقد أتى بالمعنى مباشرا فصرح بلفظ (العيب) الذى ناسبه لفظ (امتع) وصرح بالشباب والشيب وقوله: (بالمعيب) مشاكلة لفظية والمراد به الشيب، فوقع فى صحبة (تعيب) وتأمل النغم والموسيقى فى رد العجز على الصدر فى تعيب، بالمعيب وقوله: (ووجدى بالشباب، وجدى بالمشيب) الذى

---

(١) ينظر: الموازنة للآمدى٢/٢٠٣، ٢٠٤، والشهاب فى الشيب والشباب/ ٤٩.

(٢) الديوان ١/٩٩، والموازنة٢/ ٢٠٦، وهما من قصيدة فى مدح أبى المعمر الهيثم بن عبد الله.

طلبه المعنى وسعى إليه سعيا فأوقعه فى النفس موقعاً حسناً.

وبنى البيت الأول على الاستفهام (ومن لى أن أمتع بالمعيب) الذى يثير التعجب فكيف له لا يمتّع بالمشيب، وقد انقضى شبابه، فلابد أن يكون وجده بالمشيب أشد وأكثر من وجده بالشباب.

يقول الآمدى معلقا على هذين البيتين: (وهذا من فاخر هذا الباب وعجيب مذاهبه، ومن إحسان أبى عبادة المشهور)[١].

غلب على هذين البيتين عنصر التكرار والمطابقة والإضراب عن الشئ إلى غيره ، وهذا مناسب لبحر الوافر، فهو يشعرك بهجوم العجز والقافية بمجرد فراغه من الصدر[٢]، وقد انفرد البحترى بهذا البحر.

❁❁❁❁❁

وقال (من الطويل):

رَأَتْ فَلَتَات الشَّيْب فَابْتَسَمَتْ لَهَا ∴ وَقَالتْ: نُجُومٌ لَـــوْ طَلَعْنَ بِأَسْعُد[٣].

أَعَاتِكُ مَا كَانَ الشَّبَابُ مُـقَرَّبِى ∴ إِلِيكَ فَأَلْحى الشَّـيْبَ إِذْ كَانَ مبعدى

تَزِيدِينَ هَجْرًا كُلَّمَا ازْدَدْتُ لَوْعَةً ∴ طلاَبًا لأَنْ أُرْدَى فَـها أَنَـــا ذَا رَدِى

مَتَى أُدْرِك العَيْشَ الذى فَاتَ آنِفاً ∴ إِذا كانَ يَوْمِى فِيك أَحْسَنُ مِـنْ غَدِى

بدأ بالجملة الفعلية (رأت فلتات الشيب) التى تفيد تحقق وقوع الشيب فجأة أى أول ظهور الشيب، وتأمل جمال الاستعارة المكنية فقد شبه الشيب بالشىء المقيد بالوثاق فانفلت فجأة، ثم بين حالتها بعد رؤيتها لهذا الشيب

---

(١) الموازنة٢/ ٢٠٦

(٢) ينظر : المرشد ٣٣٢/١.

(٣) ديوان البحترى ٧٧١/٢، ٧٧٢، ضمن قصيدة فى مدح أحمد بن محمد بن المدبر والموازنة٢٠٧/٢، فلتات: أخذه فى سرعة، فجأة، أول ما أسرع إليه من الشيب فلتة، وسميت فلتات؛ لأنها كالشىء المنفلت بعد وثاق.

أعَاتِكُ: العاتِكُ الراجع من حال إلى حال وعتك فلان بفلان يعتك به إذا لزمه، اللسان/ عتك.

ألحى: الحى العود إذا أتى له أن يُلحى قشره عنه، واللحاء قشر كل شىء.

أرْدَى: أردى على الخمسين والثمانين أى: زاد، أى: أعيش أو أزيد فى العمر. ، ردى: هالك، فات آنفا: من وقت قريب.

فقال: (فابتسمت لها) وعطف بالفاء لسرعة رد فعلها وتأثير الشيب عليها فما كان منها إلا الابتسام، ولم يكتف ببيان ابتسامتها ولكنه زاد فى إيضاح رد فعلها بقول: (وقالت) عطف بالواو على جملة (فابتسمت لها) للتوسط بين الكمالين فقد جمع بين الهيئة والفعل وزاد المعنى وضوحاً بطريق التشبيه فقد شبه ظهور هذا الشيب فجأة بظهور النجوم اللامعة بشرط أن تكون نجوم السعد، أى: التى يتفاءل بها الإنسان أو أنها تكون بسعادة ومنفعة، فهنا الشاعر (سلب الشيب فضيلة النجوم، وأنه أشبهها منظراً فما أشبهها فضلا ومنفعة، أى: طلوع الشيب بضد السعادة وإن كان طلوع نجوم قد يكون بالسعد، وهذا تدقيق مليح وتصرف قوى)[١].

وقوله: (لو طلعن بأسعد) شرط فى التشبيه حوله من الابتذال والقرب إلى الغرابة والبعد مما جعله مليحا وبليغاً مؤثراً فى النفس.

وقوله: (فلتات) توحى بانتشار الشيب فجأة، وقوله: (فابتسمت) تدل على سرعة الانفعال وهو التبسم استهزاء منها ويؤكد هذا قولها: (لو طلعن بأسعد).

والتعبير بقوله: (نجوم) يفيد الكثرة والتحقير، إذ أن المقام هنا للاستهزاء والكره فناسبه الحذف والتنكير أى: (هى نجوم) أو (كأنها نجوم).

وذكر الإمام عبد القاهر الجرجانى هذا البيت فى باب (إدراك البلاغة بالذوق وإحساس النفس) ويتحقق ذلك فى النظم الذى وضحه وبينه لنا الإمام عبد القاهر فيقول: (اعلم أنك لن ترى عجبا أعجب من الذى عليه الناس فى أمر النظم.. ..)[٢]. ثم يوضح ويدلل ويبين كيف يكون هذا النظم وطرقه، ومن طرقه الحذف والتنكير الذى هو محل قول البحترى.

وترى البيت الثانى امتداداً للبيت الأول فيرد عليها بطريق النفى والإثبات فقد نفى القرب فى أيام الشباب (ما كان الشباب مقربى إليك)

---

(١) الشهاب فى الشيب والشباب/ ٦٥.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز/ ٥٤٦ -٥٤٩.

واثبات البعد فى الشطر الثانى (فألحى الشيب إذ كان مبعدى) أى: أن الشطرين اشتملا على معنى واحد وهو البعد فى حالة الشباب والشيب، فموقف هذه المرأة هو البعد فى الحالتين.

ولهذا أكد هجرها فى البيت الثالث بطريق المزواجة فقال: (تزيدين هجرا كلما ازددت لوعة) فهناك ازدياد من الاثنين فمنها ازدياد فى الهجر ومنه ازدياد فى الحب، ويؤكد هذه اللوعة بقوله: (طلابا لأن أردى) أى: لأن أعيش فيكون منها الهجر الذى يتسبب فى هلاكى، فيقول: (ها أنا ذا ردى). وفى قوله: (فألحى الشيب) استعارة؛ حيث شبه الشيب بالعود الذى نزع قشره فظهر عنه، فترتب على كل ظهور شىء، فالشباب قد نزع عنه مظهر الشيب، والتعريف فى الشباب والشيب للعهد، ثم أنت ترى المقابلة اللطيفة التى طلبها المعنى فى (ما كان الشباب مقربى) و (إذ كان الشيب مبعدى).

وقد بنى البيت الثالث على حرف (الدال) إلى أحدث نغما وكشف لك عن شدة لوعة الشاعر وإعيائه بسبب هجرها، إذ أنه من الحروف السهلة اللينة فى النطق ولا تحتاج إلى عناء فناسب هنا حالته النفسية.

ثم بنى البيت الأخير على الاستفهام بـ (متى) أى: أننى لا أطلب ولا أريد أن أتذكر أيام الشباب التى فاتت، وإنما أعيش يومى هذا إذا كان أحسن من الذى فات ومن غدى.

وترى مراعاة النظير بين (فات، يومى، غدى) فكلها من واد واحد.

وقدم (فيك) لإفادة القصر على هذه المرأة، فإذا كانت بجواره ومعه فى هذا اليوم، فيكون هو يومه ولا يشاركه فيه أحد ولهذا أضاف إليه ضمير التكلم، وبهذا يكون هذا اليوم أحسن من الذى فات ومن غده.

وعرف (العيش) لعهده به فى الماضى.

وترى البحترى لا يهتم كثيرا بكره أو استهزاء النساء للشيب، إذ أنه يؤكد أن يومه هذا أحسن من الأيام السابقة ومن الأيام الآتية، وكأنه يقول

لها لا تسأليني عن أمس ولا غدِ، وهذا يكشف عن عدم كرهه للشيب ولم يقر ولم يعترف باستهزاء النساء به، وإنما يوضح أنه يزداد لوعة وأن يومه أحسن من سابقه وغده، وهذا المعنى قريب من قوله السابق (ومن لى أن أمتع بالمشيب).

هذا ... وترى اتفاقا بين أبى تمام والبحترى فى الميل لبحر الطويل فى مقام كره النساء للشيب والحزن والأسف على تولى أيام الشباب.

❁❁❁❁❁

وقال (من المتدارك):

عَنَتْ كبدِى قَسْوةٌ منْك ما إنْ ∴ تـــزَالُ تُجَـــــدَّدُ فيها نُدُوبَا

وحُمِّلْتُ عنْدَك ذَنْبَ المَشِيـ ∴ ـبِ حَتَّى كَأَنى ابْتَدَعْتُ المَشِيبَا

وَمَنْ يَطَّلِعْ شَرَفَ الأَرْبَعِينَ ∴ يُلاَقِ مِنَ الشَّيْبِ زَوْراً غَرِيبَا [1]...

يصور البحترى هول العناء والقسوة التى لحقت به عندما رأى أنظار الحسناوات منصرفة عنه فيصرخ فى ثورة أن لا دخل له فى حلول المشيب ولا قبل له بدفعه.

فيخاطب فتاته بقوله: (عنت كبدى قسوة منك) بدأ بالجملة الفعلية التى تفيد تحقق الصد والقسوة من هذه المرأة، فقدم المفعول (كبدى) على الفاعل (قسوةٌ) لإفادة القصر فقد قصر هذه القسوة التى وقعت منها على نفسه، وقوله: (كبدى) مجاز مرسل لعلاقة الجزئية، وذكر الكبد دون غيره؛ لأن بصحته تكون حياة الإنسان، وبيان شدة ألمه وحرقته من هذا الهجر والقسوة، ولهذا نكر (قسوة) للتعظيم والتهويل، وقوله: (تزال وتجدد فيها ندوبا) تأكيد للقسوة التى ألمت به وتوضيح لما سبق فهذه المرأة ما زالت

---

(١) ديوان البحترى١/١٥٠، والموازنة٢/٢٠٧، والبيت من قصيدة فى مدح وعتاب الفتح بن خاقان.

عَنَتْ: العنتُ دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة، الندوب: ما يبقى من أثر الجراح، ابتدعت: بدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه: أنشأه وبداه/ اللسان/ بدع، الشرف: المكان المرتفع، زورا غريبا: الزائر الجديد الغريب.

تجدد الجراح بالهجر والانصراف عنه، وتقديم الجار والمجرور (فيها) للتخصيص حيث أنه قصر رجوع هذه الجراح مرة أخرى إلى كبده هو، وللمحافظة على القافية.

وقوله: (وحُمِّلْتُ عندكِ ذنبَ المشيبِ) من المعانى الشريقة التى بنيت على التخييل، فقد تخيل أن الشيب ذنب وقد حمله على ظهره وكأنه هو الذى ابتدع هذا المشيب، وتقديم الظرف (عندك) لإفادة القصر على هذه المرأة دون غيرها.

وقوله: (حتى كأنى ابتدعتُ المشيبا) تعليل وتأكيد لما سبق فليس له ذنب فى هذا المشيب، فينفى عن نفسه بطريق مباشر وصريح أن يكون المتسبب فى ظهور الشيب.

والتعبير بـــ (حتى) تؤكد طول المعاناة والقسوة من هذه المرأة. ثم أنه يؤكد بأسلوب الشرط وينفى عنه هذه الاتهامات فيقول:

ومَنْ يَطَّلِعْ شَرَفَ الأربعينَ ∴ يُلاقِ من الشيبِ زوراً غريباً.

فهو يؤكد أن المشيب شرف وليس ذنبا، أى أنه يكون فى مكانة عالية، وانتقل من أسلوب الخصوص إلى أسلوب العموم ليوضح أن هذا الشيب عام لجميع البشر، ثم أنه يرغب كل إنسان أن يصل إلى سن الأربعين لأنه شرف، فيجب عليه أن يفتخر ويتشوق إلى رؤية هذا الزائر الغريب، فالنفس البشرية جبلت على رؤية الشىء الغريب، فقد شبه الشيب فى أوائل الأربعين بالزائر الغريب الذى يراه لأول مرة، وأنت ترى أن صنعة البحترى فى قوله: (وحُمِّلت عندك ذنب المشيب) قد اختص بها، وقوله: (ومَنْ يطلع شرف الأربعين) لم تجدها عند أبى تمام فهو القائل:

لو رأى الله أنَّ للشيب فضلاً ∴ جاورته الأبرار فى الخلد شيبا.

فالبحترى يفتخر بالشيب ويجعله شرفاً وهو الزائر الغريب الذى يراه لأول مرة فقد أكد المعنى بأسلوب الشرط واستخدم أداته (من) فالجواب متوقع الحصول ومقطوع به لحصول الشرط.

أما أبو تمام فقد ذم الشيب وأكد المعنى أيضاً بأسلوب الشرط، ولكنه استخدم أداته (لو) فقد امتنع الجواب لامتناع الشرط فالشيب لم يلحق بالأبرار؛ لأنه ليس فضلاً ولا شرفاً.

وأنت ترى فلسفة وعمق معانى أبى تمام بينما تجد اهتمام البحترى بالصور والمعانى أشد.

❁❁❁❁❁

وقال (من الخفيف):

أيُثْنَى الشَّبابُ أَمْ مَـا تَـولَّى ∴ منْه فِى الدَّهْرِ دَوْلَةٌ مَـا تَعُودُ؟
لا أَرَى العيشَ والمفارقُ بِيضُ ∴ أُسْوَةَ العَيْشِ والمَفارِقُ سُـودُ
وأَعُدُّ الشَّقِىَّ جِداً ولَوْ أُعْـ ∴ ـطِىَ غُنْماً حتى يُقَالَ سَـعِيدُ
مَنْ عَدَتْهُ العُيُونُ وانْصَرَفَتْ عَنْـ ∴ ـهُ الْتِفاتاً إلى سِوَاهُ الخُدُودُ (١)

يصور البحترى حسرته وحزنه على أيام الشباب التى تولت دون رجعة، وبدأ بالاستفهام (أيثنى) مع ذكر المعادل (أم ما تولى) لإفادة النفى أى لا يعود الشباب مرة أخرى ولهذا دخلت الهمزة على الفعل (يثنى) وجاء المعادل معها، فهنا نفى وإنكار الفعلين ليكون أشد فى الإنكار أو ليفيد استحالة رجوع الشباب مرة أخرى، ولهذا أكد بالدليل فقال: (منه فى الدهر دولة ما تعود؟ فالزمن أو الدهر لا يعود إلى الوراء، وكأنه يجيب عن هذا السؤال ضمناً أو أنه طوى الإجابة فى نفس السؤال، أى استحالة رجوع الشباب كما أنه يستحيل رجوع الدهر، والأسلوب يشوبه الحسرة والندم على أيام الشباب التى تولت دون رجعة، ويؤكد هذا المعنى قوله فى البيت الثانى (لا أرى العيش والمفارق بيض.. ..) بالمفارقة العميقة شديدة الوقع على

---

(١) ديوان البحترى ٥٠٢/١، والموازنة ٢٠٨/٢، والأبيات ضمن قصيدة فى مدح أحمد بن عبد العزيز ابن دلف، وهجاء أبى يوسف بن البريدى، وفى الديوان (أيعود الشباب أم يتولى)، إنما العيش والمفارق بيض).

أيثنى: أيرجع، تولى: أعرض وولى هاربا أى: أدبر.

إسوة: مساويا ومماثلاً، جدًا: نقيض البلى - اجتهاد فى الأمور.

النفس فلا يستوى أيام الشباب وأيام الشيب، ثم أنه كنى عن الشيب بقوله: (بيض) وعن الشباب بقوله: (سود) وكأنه يريد أن يؤكد لك تأثير اللون عليه فاللون الأبيض فعل به ما فعل ولهذا فهو نقيض اللون الأسود فلا يستويان بطبيعة الحال، فما بالك بالشيب والشباب؟ هل يستويان؟

ثم أنه يؤكد مرة أخرى أن الشقى لا يكون سعيداً لو أعطيته غُنْماً، قوله: (وأُعُد الشقى) كناية عن الشيب وقوله: (سعيد) كناية عن الشباب وكأنه يريد أن يقول: أن المال الكثير لا يذهب شقاء الشيب أو لا يحوله إلى شباب، وبناء الأفعال للمجهول (وأعُدَّ، أُعطى، يُقال) لضيق المقام والسأم والملل فالشاعر ألم به الحزن والحيرة والحسرة على أيام الشباب فضاق صدره فلجأ إلى الحذف والإيجاز.

ثم يؤكد هذه المعانى بأسلوب الشرط (مَنْ عدته العيونُ.. ..) أى: أن العيون إذا انصرفت عنك فهل تلتفت إليك الخدود؟

والمصدر (التفاتاً) قام مقام الجواب والتقدير أى: لا تلتفت التفاتاً إلى سواه، فعبر بالمصدر مكان جواب الشرط للمبالغة والتأكيد فى انصراف النساء عنه عند ظهور الشيب فى مفارقة فقد انصرفت بعيونها فهل تلتفت إليك الخدود؟ وتميزت هذه الأبيات بكثرة التوكيدات.

والتعبير بالجمل الفـعلية الماضية التى تفيد انقضاء وتولى الشباب دون رجعة.

والمفارقات المؤثرة فى النفس التى اندمجت مع المعنى فأخرجت صوراً عميقة الدلالة.

جاءت هذه الأبيات إثر المقدمة الغزلية:

نَفستْ قربها علينا كَنُودُ ∴ والقريب الممنوعُ فيك بعيدُ

نفست: أى ضنَّت، والكنود: المرأة التى تكفر بالود.

الديوان ١/٥٠١

البحترى يصور صد وبعد هذه المرأة مع أنها قريبة منه فقد حدث فى

هواها ضعف فكان منها الصد والهجران.

ثم يقول: أيعودُ الشبابُ أم يتولى ∴ منه فى الدهر دولة ما تعودُ؟

فقد أنكرت هذه المرأة الود أيام الشباب وجحدت به، ولهذا فلا عودة لأيام الشباب، وإذا أصاب الرجل الشيخوخة مال ود الغانيات عنه، فكانت المناسبة واضحة، ثم أنه يذهب إلى الممدوح فقد (طلبت العيسُ مرحولة عليها الوفود) فهو الملجأ بكرمه وشجاعته المعهودة، فلم يكن منه صد أو نكران أو هجر فكانت المناسبة ثم ختم بقوله:

لم أكن أمدح البخيل ولا أقبـــ ∴ ـــلُ نيل الممدوح وهو زهيد

الديوان ١/٥٠٦

وكأنه يُعرض بهؤلاء النساء اللائى هجرنه، فليس البخيل بخيل المال فقط وإنما هو بخيل المشاعر أيضاً.

❁❁❁❁❁

وقال (من الكامل):

تَرَكَ السَّوَادَ للابِسِـيهِ وبيَّضَا ∴ ونَضَا منَ السِّتِّين عَنْهُ مَا نَضَا

وشآهُ أغْيَدِ فِى تَصَرُّفِ لَحْظِهِ ∴ مَرَضٌ أَعَلَّ بِهِ القُلُوبَ وَأَمْرَضَا

وكأَنَّهُ وَجَدَ الصِّبَا وَجـدِيدَهُ ∴ دَيْنًا دَنَـــا مِيقَاتُــهُ أَنْ يُقْتَضَى

أَسْيَانُ أَثْرَى مِنْ جَوىً وصَبَابةٍ ∴ وأَسَافَ مِنْ وَصْفِ الحِسَانِ وَأَنْفَضَا[1]

يصور البحترى حزنه وآلامه وذهاب سروره ونشاطه مع بلوغه الستين، وأيقن أنه لن يستطيع مجاراة الشباب فى صبواتهم ولهوهم، ومنافستهم فى جذب قلوب الحسناوات والظفر بهنَّ، ووصلهن وتأكد أنه سوف يخسر الرهان، وأن حظه سيكون الجوى والآلام.

---

(١) الديوان ٢/١١٩٨، والموازنة٢/٢٠٩، والأبيات ضمن قصيدة فى مدح إسماعيل بن بلبل، نضا: نضا ثوبه عنه نضوًا: خلعُه وألقاهُ عنه أى رمى. وشآهُ: شاقه، أعل: من العلة، أغيد: غيد غيدا وهو أغيَدُ: مالت عنقُه ولانت أعطافُه، وقيل: استرخت عنقه، وظبى أغيَدُ كذلك. اللسان/ غيد أسيان: حزين، أساف: ذهب ماله وضاعت ثروته، انقضا: فنى زاده وهلك ماله

بدأ البحترى بالجملة الفعلية (ترك السوادَ للابسيه) لإفادة أن الشيب قد جاءه وأدركه وفى التعبير بضمير الغائب المطوى كأنه جرد من نفسه إنساناً آخر يتحدث عنه، وفى التعبير بـ (ترك) يوحى أنه هو الذى ترك الشباب باختياره، وأضمر الفاعل لضيق المقام ولأنه فى حالة من الحزن وشدة الوجد، ثم أنه كنى كعادته عن الشباب بـ (السواد) لسواد الشعر فى زمن الشباب، وهناك ملمحا آخر فهذا اللفظ يوحى بشدة حزن وألم الشاعر وكأن أيام الشباب هذه هى السواد نفسه الذى ينفر منه الجميع وكأنه ترك شيئاً مذموماً، وترك أيام الحزن والألم وانتقل إلى شىء محبوب ومرغوب فيه وهو البياض، وتأتى المفاجأة بقوله: (ونضا من الستين ما نضا) فقطع أن المراد من السواد والبياض هو الشباب والشيب فهو توضيح وتحديد لغرض الشاعر، واتضح المجاز فى الشطر الأول؛ حيث شبه سواد الشعر بالثوب الأسود، وهذا يوحى بشدة حزنه وألمه على تولى أيام الشباب، ثم أنه عطف جملتى (وبيضا، ونضا) على (ترك) للتوسط بين الكمالين؛ حيث الاتفاق فى الجمل الماضية الخبرية والاتفاق فى المعنى والمسند إليه واحد.

وهذا البيت يشتمل على المعنى الأم للأبيات بعده، ثم يوضح سبب حزنه وألمه ومرضه فيقول:

وشآه أغيد فى تصرف لحظه .:. مرض أعل به القلوب وأمرضا

فقد صور هذه المرأة الحسناء عندما نظرت إليه بالظبى الذى أصابه فى قلبه بعينيه الجميلتين، وتركه معلولاً، وعبر بالجمع مع أن المقام للإفراد، ليوهم أن هذه الحسناء بنظراتها قد أعلت قلوباً كثيرة، ثم ينتقل إلى صورة أخرى ويصور أوان انتهاء أيام الصبا بقرب ميعاد قضاء الدين الذى يجب أن يُقضى، وهذا يوحى أنه لا يملك من أمره شيئاً، وأن مراحل عمره إنما هى كالدين أو كالوديعة التى يجب أن ترد إلى أصحابها كما قال الشاعر:

إنما المال والأهلون ودائعُ .:. ولا بد يوماً أن ترد الودائعُ

ثم أنه فى البيت الأخير يأتى لك بصورة أخرى لتأكيد انقضاء أيام

الصبا وإدراكه للشيب، وهذه الصورة لا تختلف كثيرا عن الصورة السابقة إذ يجمعهما ضياع وفقدان المال، الأولى بقضاء الدين الذى عليه، والثانية بضياع وفقدان المال الذى فى يديه أما الاختلاف فالأولى تجسيد لقرب انتهاء أيام الصبا فكانت الصورة مباشرة وواضحة، والثانية ضياع وذهاب وصل الحسناوات وميلهن إليه، فكأنه فقد ما فى يديه من مال، فكانت الصورة غير مباشرة إذ طوى تحتها انتهاء أيام الصبا، وإن كشف هذا فإنما يكشف عن شدة لوعته وحزنه ولهذا قال: (أسيانُ أثرى من جوى وصبابة) فانظر كما فى أبياته وتصويره من لوعة؟ وكم تنبئ عنه من يأس محدق، لا تصحبه بادرة أمل، جسد كل هذه المعانى بصور غنية بالموسيقى المؤثرة التى تمثلت فى الطباق بين (السواد وبيضا) ، (نضا وما نضا) والمقابلة والجناس فى قوله (دينا ، دنا) ومراعاة النظير فى (مرض ، أعل، شاءه ، جوى ، صبابة) التى طلبها المعنى فى نظم بديع يكشف عن مقدرة الشاعر فى استخدام ألفاظه التى ناسبت معانيه مع قوة الدلالة وحسن التركيب.

ويغلب استعمال الأفعال الماضية على سطح هذه الأبيات لتفيد كل هذه الأفعال فوت أيام الصبا والشباب وتحقيق الحزن والشقاء والمرض الذى ألم بقلبه بسبب مفارقة الحسناوات لما نزل به الشيب.

كما غلب العطف بحرف (الواو) ثمانى مرات الذى يفيد الجمع بين هذه المعانى المتناسبة فكلها فى مقام الحزن والألم.

أما الضمائر فقد غلب (ضمير الغائب) مع أن البحترى يتحدث عن نفسه، ليوحى بغياب الشباب عنه ونتج عن ذلك غياب نشاطه وهمته، ومن ناحية أخرى إعراض وغياب الحسناوات عنه.

وهذه المقدمة فى وصف الشيب الشباب لا تختلف كثيراً عن المقدمة الغزلية؛ لأنها أدمجت فيها، فقد بيَّن البحترى إنَّ إصابته بالشيب وتولى الشباب عنه كان سبباً فى عدم جذب قلوب الحسناوات وقطعهن وعدم وصلهن ومن ثم كان حظه الجوى والآلام.

وكعادته يتوجه إلى الممدوح ليهون عنه هذه الهموم فكانت المناسبة يقول:

خَفِّضْ عليك من الهموم فإنما ∴ يحظى براحة دهره من خفضا

الديوان٢/١١٩٩

وختم القصيدة بقوله:

أو لا تكنْ هبةً فقرضٌ يُسرت ∴ أسبابهُ وكواهب من أقرضا

الديوان/٢/١٢٠٢

فنجد المناسبة بينه وبين قوله:

وكأنه وجد الصبا وجديده ∴ دينا دنا ميقاتُه أن يقتضى

فقد ناسب بين الدَّين الذى يقضى فى ميعاده وبين الهبة والقرض.

فالبحترى يصور تولى أيام الصبا بالدَّين الذى يوفى فى ميعاده فقد أخذ منه شيئا، وأى شىء فهو أيام الصبا، أما هذا الممدوح فقد أعطاه، وهون عليه آلامه، فكانت المناسبة بين المقدمة والخاتمة، وهذا من حسن النظم وترتيب المعانى بعضها فى إثر بعض.

هذا ... وأنت ترى الرنين والنغم الذى تنساب معه الألفاظ انسيابا، حتى تكاد تكون الصور كالبرق الخاطف، وتلاءم هذا مع بحر الكامل.

(ولن تجد شاعرا يفتنُّ كما يفتنُّ البحترى فى استغلال الثلاثيات من الكلمات واستعمال المصادر المنونة وألفات المد، وحروف الإشباع، كل ذلك فى سلاسة وخفة ورشاقة وما أبدع ماقال عنه ابن الأثير أنه أراد ان يشعر فغنى) [١].

---

(١) المرشد ٢٦٨/١.

المبحث الرابع
نزول الشيب قبل حينه

قال أبو تمام (من البسيط):

أَبْدَتْ أَسىً أَنْ رَأَتْنِى مُخْلَسَ القُصَبِ ∴ وَآلَ مَا كَانَ مِنْ عُجْبٍ إلى عَجَبِ
سِتٌّ وعِشْرُونَ تَدْعُونِي فَأَتْبَعُهَا ∴ إلى المَشِيبِ فَلَمْ تَظْلِمْ ولَمْ تَحُبِ
فَلاَ يُؤَرِّقْكِ إِيمَاضُ القَتِيرِ بِهِ ∴ فَإِنَّ ذَاكَ ابْتِسَامُ الرَّأْىِ والأَدَبِ[1]

يقول: إن صاحبته حزنت لما رأت الشيب يعتريه، وتحول إعجابها بحسنه إلى تعجب من حاله، ثم يبرر هذا ويقول: إن الشيب لم يظلمه لأن ما لقيه فى ست وعشرين سنة من عمره يُشيب رأس من هو أفتى منه. ثم يوضح هذا ويقول: فإنه قاسى فى يوم واحد من الدهر خطوب الدهر كله، ولقى منه فى ساعة ما يلقاه فى حِقَبٍ طويلة [2].

بدأ أبو تمام بالجملة الفعلية (أبدت أسىً) لبيان موقف هذه المرأة فقد أظهرت الأسى والحزن ثم رتب عليها جملة (أنْ رأتنى مخلس القصب) أى: لرؤيتى فى هذه الحالة (مخلس القصب) حال يوضح اختلاط سواد شعره بالبياض أى: أنه فى أوائل المشيب، فقد استعاره لاختلاط الشيب بالشباب، ثم ما لبثت أن تحول حال هذه المرأة من الأسى إلى العَجب بعد الإعجاب، فعبر عن هذا بالجملة الفعلية (وآل ما كان من عُجب إلى عَجب) فوصل بالواو للتوسط بين الكمالين.

وأنت ترى أن أبا تمام أجمل المعنى الذى يريده فى البيت الأول ثم أنه يوضح هذا المعنى ويأتى بصور مختلفة لتعليل هذا الشيب ووصفه، فقد علل

---

(١) شرح ديوان أبى تمام/ ٤٧، والموازنة٢/ ٢١٢، والأبيات مطلع لقصيدة فى مدح الحسن بن سهل. المُخْلَسُ: ما اختلط السواد والبياض فى شعره، القُصَبُ: جمع القصبة وهى: خصلة شَعر دون الضفيرة، ولم يذكر الآمدى البيتين الثالث والرابع:

يومى من الدهر مثل الدهر مشتهرٌ ∴ عزما وحزما وساعى منه كالحِقَبِ
فاصغرى أنَّ شيبا لاح بى حدثا ∴ وأكبرى أننى فى المهد لم أشبِ.

(٢) شرح ديوان أبى تمام /٤٧.

فى البيت الثانى سبب ظهور الشيب عنده قبل أوانه فما هو إلا كثرة الهموم والخطوب، فقد نزل به الشيب فى ست وعشرين بسبب هموم الدهر، فقد أسند ظهور الشيب إلى الهموم إسناداً مجازياً.

أو أن المعنى كما ذكره التبريزى يقول: (تدعونى إلى المشيب ست وعشرون سنة فأجيبها، ولم تدعنى إلى الشيب فى غير وقته ظالمة لى جائرة علىَّ فإنى قاسيت فى الدهر ما لو شبت معه فى المهد لم ينكر.

وكرر (لم) الجازمة مرة معطوفة بالفاء (فلم تَظْلِم) لسرعة بيان أنها غير ظالمة له عندما رأى الشيب فى رأسه، ولهذا جزم القول أو الجدل فى هذا الأمر، ثم أنه يؤكد هذا المعنى بالعطف فقال: (ولم تَجُبِ) أى: ولم تأثم فجمع بين عدم الظلم وعدم الإثم منها.

وفى البيت الأخير ينهاها بقوله: (فلا يؤرقك) أى: لا يقلقك بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فى قوله: (أبدت أسى).

وفى قوله (إيماض القتير) تصوير لظهور الشيب واختلاطه بالشعر الأسود بلمعان البرق السريع القليل الذى يختفى ثم يظهر وكأنه يقول لها لا يقلقك هذا الشيب فقد يأتى بالخير مثل البرق الذى يعقبه الخير ثم أن هناك ملمحاً جماليا فى هذه الصورة وهو البرق والضياء، ثم يؤكد لها هذه الصورة بصورة أخرى فيقول: (فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب) صورة مألوفة لوصف الشيب بالتبسم دون الضحك، لأن التبسم يكون القليل من الضحك فناسب المقام والسياق لأنه فى أوائل الشيب. ولكنه حول هذه الصورة المألوفة إلى صورة غريبة فأضاف إليها قوله (الرأى والأدب) فتجوز بالكناية عن بداية الحلم وسداد الرأى فى أوان الشيب، (فترى أن أبا تمام جحد وأنكر الشيب وقال: (إنه ابتسام الرأى والأدب) أما البحترى يعترف بالشيب واحتج له وقوى جانبه وأراد أن يرفعه على الشباب فقال فى موضع آخر:

وبياض البازى أصدقُ حسنا ∴ إن تأملت من سواد الغراب

فأقام على ذلك حجته وهو أن البياض فى البازى الذى هو الصقر وهو السيد والغالب أصدق فى الحسن من سواد الغراب، فنفر من الشباب لما جعله سواد غراب، وحبب فى الشيب لما جعله بياض البازى، وهذا كما ترى صنعة شعر لا غير، وهو عند البحترى أعذب الشعر وأكذبه، وكلام الشيخ عبد القاهر فى هذا الموضوع فيه سخاء، وفيه دقة، وفيه إصابة؛ لأنه كما قلت خوض فى عباب صنعة البيان..)[١].

وعلاقة أبيات الشيب هذه بغرض القصيدة (المدح) علاقة واضحة جلية فأبو تمام ذكر سبب نزول الشيب به وهو الهم والحزن، ثم أنه علل هذا الشيب المبكر بالنضوج والحكمة، وبيَّن موقف هذه المرأة من شيبه فما كان منها إلا الحزن والبكاء ثم يرد عليها أن هذا الشيب لا يعيبه وإنما هو يرفع من شأنه وقدره.

ثم يقول إنه لا يعزيه عن همه إلا ذهابه إلى هذا الممدوح فيقول:

لا يطردُ الهمَّ إلا الهمُّ من رجلٍ ∴ مُقلقلِ لبناتِ القفرةِ النُّعُبِ[٢].

ثم يقول: كأنما هو من أخلاقه أبداً ∴ وإن نوى وحده فى جحفل لجب.

ومادام هذا الممدوح يقارع بصبره وحلمه خطوبا تقصَّر عن مقارعتها الجيوش الكثيرة فكيف لا يقارع خطوبى وهمومى؟

وقد ختم أبو تمام قصيدته بقوله:

من غير ما سبب ماض، كفى سببا ∴ للحر أن يعتفى حراً بلا سببِ[٣]

وكأنه يقول: إن هذا الممدوح قد أحسن إلىَّ بكرمه وأخلاقه من غير سبب ففرج عنى همومى وأحزانى التى تسببت عنها هذه المرأة التى أبدت أسىً أن رأتنى مخلس القصبِ..)

وكأنه يقول: كان من الأولى أن تفرج هى عنى همومى التى كانت سبباً

---

(١) ينظر: مدخل إلى كتابى عبد القاهر/ ١٨٧، ١٨٨، د. أبو موسى.

(٢) شرح ديوان أبى تمام/ إيليا الحاوى/ ٤٨، ٤٩.

(٣) شرح ديوان أبى تمام/٤٩.

فى شيبى ولكن لم يحدث هذا بل إنها زادت علىَّ الهموم.

وقال أبو تمام(من الخفيف):

شَابَ رَأسى وَمَا رَأيْتُ مَشيبَ الْـ ∴ ـرَأسِ إلاَّ مِنْ فَضْلِ شَيْبِ الفُـؤَادِ

وكَذَاكَ القُلُوبُ فى كـلِّ بُـؤْسٍ ∴ ونَعيمٍ طَلاَئِعُ الأَجْسَـادِ

طَالَ إنْكارِىَ البَيَاضَ وإنْ عمْـ ∴ ـرْتُ شيئًا أَنْكَرْتُ لَوْنَ السَّوَادِ

زَارَنى شَخْصُه بِطَـلْعَةِ ضَـيْمٍ ∴ عَمَّرتْ مَجْلِـسى مِـن العُـوَّادِ

نَالَ رَأسى مِنْ ثُغْرَةِ الهمِّ لَمَّـا ∴ لَمْ يَنَلْهُ مِنْ ثُغْرَةِ المِيـلاَدِ[١].

يقول الآمدى: (فالأبيات الثلاثة الأولى من فلسفته الحسنة الصحيحة المستقيمة ومن مشهور إحسانه، وقد عابه قوم بقوله: « شيب الفؤاد» وليس عندى بعيب؛ لأنه لما كان الجالب للشيب القلب المهموم نسب الشيب إليه على الاستعارة، وقد أحسن عندى ولم يسئ) [٢].

ويعلق المرتضى فى الشهاب على قول الآمدى فقال: (فقد أحسن الرجل بلا شك ولم يسئ، وما المعيب إلا من عابه، وأما أنت أيها الآمدى فقد نفيت عنه الخطأ واعتذرت له باعتذار غير صحيح؛ لأن القلب إذا كان جالبا للشيب كيف يصحُ أن يقال: قد شاب هو نفسه؟ إنه أشاب ولا يقال شاب والعذر الصحيح لأبى تمام أن الفؤاد لما كان عليه مدار الجسد فى قوة وضعف وزيادة ونقص ثم شاب رأسه لم يخل ذلك الشيب من أن يكون من أجل تقادم السن وطول العمر، أو من زيادة الهموم والشدائد وفي كلا الحالين لابد من تغير حال الفؤاد وتبدل صفاته فسمى تغير أحواله شيبا إستعارة ومجازاً، كما كان تغير لون الشعر شيباً، والبيت الثانى يشهد بما قلناه؛ لأنه جعل القلوب طلائع الأجساد فى كل بؤس ونعيم) [٣].

---

(١) شرح ديوان أبى تمام/ ١٥١، والأبيات ضمن قصيدة فى مدح عبد الله بن أبى داود، والموازنة٢/ ٢١٢، من فضل: البقية من الشيء أو شيء قليل.

الطلائع: جمع الطليعة وأصلها فى الجيش للتدليل على الفريق المتقدم منه.

(٢) الموازنة/٢١٣.

(٣) الشهاب فى الشيب والشباب/ ٥٢، ٥٣.

والمرتضى يقول إن الآمدى اعتذر لأبى تمام باعتذار غير صحيح ويأتى هو بالاعتذار الصحيح كما جاء فى نصه السابق.

وفى رأيى أن المرتضى كان متحاملاً على الآمدى، فالمرتضى فسر ما قاله الآمدى فقط، ولم يزد عنه إلا أنه علل شيب الفؤاد من تقدم السن وطول العمر، فليس هناك فرقاً أو خلافاً كبيراً.

وأرى الإجابة على هذا عند د/ أبو موسى فقد ذكر أن هذا المعنى جديد يعلل به المعنى الأول، وهذا المعنى الجديد هو أن مشيب الرأس من فضل شيب الفؤاد وأكده بالنفى والاستثناء المفيد القصر والذى يؤتى به فى المعنى يجهله المخاطب وينكره.

يقول: (.. .. وهكذا لما كانت الجملة كشفا عن معنى جديد أحس الشاعر غرابتها، وليس المعنى الجديد الذى نزعم أن الشاعر تعمق فى استخراجه علاقة شيب الرأس بشيب الفؤاد، وإنما فى هذا الحصر الذى ينفى أن يكون لتقدم السن أثر فى الشيب، وإنما هو من شيب الفؤاد لا غير، ولهذا يقول الشاعر: وما رأيت مشيب الرأس إلا من فضل شيب الفؤاد) فجعل هذا الحصر رأيا يراه ويؤكده، وهذه هى الغرابة وهو سر النفى والاستثناء)[1].

وكأن أبا تمام أراد بـ (شيب الفؤاد) بعُد النساء عنه وعزوفهنّ، وتركه وحيداً فشاب فؤاده وتسبب فى مشيب رأسه، ولهذا قال: (وما رأيت مشيب الرأس إلا من شيب الفؤاد) وهذه فلسفة وتعمق للمعنى، فأتى بهذا المعنى الجديد الغريب الذى أكده بأسلوب القصر.

ثم أنه عبر بالفؤاد دون القلب؛ لأن الفؤاد أداة للوجدان وبه يكون الهم والحزن والقلق واللهفة والتحسر على ما فات، وللمحافظة على القافية.

ولهذا بدأ أبو تمام بالجملة الفعلية (شاب رأسى) لتحقق ظهور الشيب، وهى تشتمل على كل المعانى التى جاءت بعدها، وهى جملة مختصرة كما

---

(١) مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى/ ٣٣٨، ٣٣٩.

ترى، ثم عبر بالجملة الحالية التى كشفت عن معنى جديد (وهو أن مشيب الرأس من فضل شيب الفؤاد)، وهى تعليل للمعنى الأول (شاب رأسى).

وقوله: (من فضل) فقد جعل مشيب الفؤاد أصل الشيب الذى استمد منه مشيب الرأس، ولهذا فشيب الرأس قليل بالنسبة إلى شيب الفؤاد فكأن فؤاده تأثر بالهم والحزن أولاً فشاب ثم انعكس هذا على الرأس فشاب.

ثم عطف البيت الثانى على الأول (وما رأيت مشيب.. ..) والمعنى والحال أنى ما رأيت مشيب الرأس إلا من شيب الفؤاد، وأن القلوب فى كل بؤس ونعيم طلائع الأجساد.

وانظر إلى جمال الصورة فأكد وعلل شيب الفؤاد حيث صور القلوب وقد سبقت الجسد فى تأثرها بالهموم بمقدمة الجيش الذى يتأثر بكل المفاجآت لأنه فى الصدارة.

وهذه الصورة التمثيلية الضمنية تدل على تعمق وفلسفة أبى تمام فى صوره ومعانيه.

وانتقل من الخصوص فى البيت الأول إلى العموم فى هذا البيت كأنه قاعدة عامة، وهذا من تركيب المعانى ومما يحمده كثير من البلاغيين من أمثال (حازم القرطاجنى)، الذى ذكر أنه يكثر فى شعر أبى الطيب وأراه كثيراً فى شعر زهير[1].

وقدم الجار والمجرور (فى كل بؤس ونعيم) على الخبر (طلائع الأجساد)؛ لأن المعنى غريب وغامض وضحه الشاعر بهذا التقديم.

يقول د. أبو موسى فى الانتقال من الخصوص إلى العموم: (ومن براعة السبك أن يجعل الشاعر المعنى الأعم ملحقاً بالمعنى الأخص وداخلاً فى حيزه، وذلك من حيث علائق الجمل، مع أن العكس هو الأصل والمعنى الأعم هو قوله: «وكذلك القلوب» وهو ملحق بالمعنى الخاص وهو «وما رأيت» ومعطوف عليه ومرتبط به بكلمة «وكذلك» التى بنى البيت عليها،

---

(١) ينظر: مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى/ ٣٣٩/ بتصرف.

وأصل بناء بقية البيت القلوب طلائع الأجساد، وهذا معنى غامض وضحه الشاعر بهذا الجار والمجرور (فى كل بؤس ونعيم) وقدمه على الخبر مقحما بين جزئى الجملة، كل ذلك لأن المعنى المراد لا يتضح إلا به)[١].

قوله: طال إنكارى البياض وإن عُمِّرتُ .·. شيئا أنكرتُ لون السواد.

هذا البيت معناه مترتب على المعنى السابق، فقد عبر عن (الشيب) بلفظ (البياض)؛ لأن من البديهى أن لون البياض شىء لا ينكر، بل هو محبوب ومرغوب كما هو معهود فى لون البدر والغرة والحسان، وفى التعبير بالماضى (طال) ما يدل أنه رفض هذا الشيب، وهو يكرهه وينكره بغير فائدة ولا جدوى ومن وراء إنكاره رغم تصميمه، فلا مفر منه.

وهذه الجملة (طال إنكارى البياض) تهيئة للجملة الشرطية (وإن عُمِّرتُ شيئا أنكرت لون السواد) وكأن أبا تمام يريد أن يقول لك إنه أنكر الشيب ليس لعيب فيه، وإنما لأنه ملَّ أن يظل على حالة واحدة، فلو طال شبابه لأنكره أيضاً، أى أنه لا يصبر على حال يطول؛ لأنه يريد التغيير فى حياته، فلا يطول حال إنسان وإن كان فى نعيم، وهذا من المعانى الغريبة التى وضحها أبو تمام بفلسفته وتعمقه فى المعانى.

يقول أبو موسى: (.. .. وكل هذا من استخراجات أبى تمام الغريبة وتعمقه وفلسفته، وقد وصف الآمدى كلامه بأنه من الفلسفة الحسنة المستقيمة، وإنما أراد التعمق.. ..)[٢].

وتلاحظ التوافق هو الغالب فى بناء هذه الأبيات حيث الجملة الحالية بعد جملة (طال إنكارى البياض) التى أبانت ووضحت كل هذه المعانى التى ألمت بالشاعر.

وأرجع إلى النسق تجد الاتفاق فى بناء الجمل حيث بدأ فى كل بيت بجملة فعلية (شاب رأسى - طال إنكارى - زارنى شخصه - نال رأس)

---

(١) مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى/ ٣٣٩.

(٢) مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى/ ٣٤٠.

وبعد كل جملة أتى بكلام متعلق بها إما حال كما فى البيت الأول والثالث، أو جار ومجرور كما فى البيت الرابع والخامس، وهذا من تشابه البناء وحسن النظم.

وقوله: زارنى شخصه بطلعةِ ضيم ∴ عَمَّرتْ مجلسى من العُوَّادِ

يحكى أبو تمام هنا كيف أصابه الشيب، وكيف ألم به ونزل بساحته، فهو يرجع إلى جذر المعنى الأول (شاب رأسى)؛ لأنه يتحدث عن بداية الشيب، وقوله: (طال إنكارى.. ..) يدل على أنه زاره منذ زمن، فالمعانى فى الشعر لا تترتب بتسلسل الأحداث، وإنما يقطع الشاعر هذا التسلسل ويرتد من حيث يرى، والارتداد هنا إلى جذر المعنى، وهذا من حركة المعنى التى هى من حسن النظم.

ويجسد أبو تمام الشيب بالرجل الظالم الذى جار عليه وأنقصه حقه على سبيل الاستعارة التصريحية (ففيه شوب من السخرية والتهكم فالزيارة هنا زيارة ظالم يوقع القهر والضيم بمن يزوره، ثم اتبع الشاعر هذا المعنى بمعنى غريب وهو عمران مجلس الشاعر بالعواد بسبب طلعة الضيم، وهذا معنى غريب لأن الناس لم يعهدوا رجلا يعوده العواد بسبب نزول الشيب به، وكأن أبا تمام أراد المطابقة بين زيارة شخص الشيب وعمران مجلسه من العُوَّادِ)[١].

ولكن الآمدى ينكر عليه هذا المعنى فيقول: (وقوله: « عمرت مجلسى من العواد» معنى لا حقيقة له: لأنا ما رأينا ولا سمعنا أحداً جاءه عواد يعودونه من الشيب، ولا أن أحداً أمرضه الشيب ولا عزاه المعزون عن الشباب) [٢].

وأقول إن هذا من غريب المعانى ومن فلسفة أبى تمام فكأنه تخيل الشيب رجلاً ظالماً قد زاره وترتب على ذلك أن هذا الرجل الظالم قد

---

(١) مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى/ ٣٤٠، ٣٤١.
(٢) الموازنة٢/ ٢١٣.

أمرضه، فامتلأ مجلسه من العواد.

ثم يوضح هذا المعنى فى البيت الأخير يقول:

نال رأسى من ثُغْرة الهمِّ لما ∴ لم ينلْهُ من ثُغْرةِ الميلاد[١].

أى: أن الشيب أصابه فى رأسه من كثرة الهموم التى اخترقت ثُغرة الشيب وهذا بخلاف ثُغرة الميلاد.

فقد تخيل الشاعر أن الهم ثقب فى رأسه ثغرة من الثغرات التى أغار منها جيش الشيب فأصابه فى مملكة الشباب الحصينة، وهذا من فلسفة وتعمق أبى تمام فى المعانى والصور الغريبة البارزة.

يقول د/ أبو موسى: (وكأن أبا تمام كان يتوفر أحياناً على تكوين هذه الصور المجسمة الغريبة، وتوسيعها وتوزيع أحداث وأحوال حولها) [٢].

وهذا البيت تأكيد للبيت الأول (شاب رأسى) فقد شاب من الهم وليس من كبر السن وهذا ما أكده بقوله: (لم ينله من ثغرة الميلاد) وفى رأيى أن لفظة (الميلاد) مناسبة للمعنى حيث أن الشاعر يريد أن يقنع السامع أنه لم يصبه الشيب بسبب تقدم العمر أو عدم تقدمه، فهذا ليس السبب وإنما السبب هو (الهم) ولهذا قال: (ثُغرة الهم) وليس (ثغرة الميلاد) فكانت مناسبة للمعنى والمحافظة على القافية.

أما « الآمدى» فوصف هذا البيت بالرداءة وبُعد المعنى يقول: (وقوله: « نال رأسى من ثغرة الهم» « بيت ردىء بعيد المعنى، ولكنه يقرب ويتخلص إذا وقع التأنِّى للعبارة عنه.. ..) [٣].

ومن نص الآمدى يتضح أنه لم يرض عن اختيار لفظة (الميلاد) يقول: «كان وجه الكلام أن يقول مرة ثغرة الكبر أو من ثغرة السن لا من ثغرة الميلاد)

---

(١) نَالَ: النَّائِلُ ما نلت من معروف إنسان وكذلك النوال، وأناله معروفه أى: أعطاه معروفه، النوال لا يكون إلا فى الخير. اللسان/ نوال.

(٢) مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى /٣٤١، ٣٤٢.

(٣) ينظر: الموازنة٢/ ٢١٣ -٢١٥.

ويرد عليه «المرتضى» فى الشهاب ويقول: « وهذا منه ليس بصحيح؛ لأن العبارات الثلاث بمعنى واحد ويقوم بعضها مقام بعض)[١].

وفى رأيى أن هذا ليس بصحيح؛ لأن هناك فروقا بين الكلمات الثلاث (الميلاد - الكِبَر - السِّنّ) فالميلاد: ميلاد الرجل الوقت الذى يولد فيه، السن: تطلق على الشاب الحديث فى السن والقوى فى العقل والعلم، الكِبَر: مصدر، الكبير فى السن من الناس والدواب [٢].

والمناسبة للمقام هنا هى لفظة: (الميلاد) فقد أراد أبو تمام أن الإنسان يولد بهذه الثغرة التى يدخل منها الشيب، ومع ذلك لم يدخل له الشيب من هذه الثغرة، وإنما دخل من ثُغرة الهم.

كما عاب الآمدى على أبى تمام لفظة (نال) وقال: (وكان يجب عليه أن يقول: (حلَّ برأس أو نزل برأسى) ويرد عليه المرتضى ويقول: (والأمر بخلاف ما ظنه؛ لأن الجميع واحد، وما نال رأسه فقد حلَّ به ونزل)[٣].

وفى رأيى أن لفظة (نال) هى المناسبة لهذا المعنى دون حل أو نزل؛ لأن نال تكون فى الخير أو ما نال من معروف إنسان، والشباب عند أبى تمام هو الخير فقد تخيل أن (البياض) الشيب أتاه من هذه الثغرة وقد أخذ خير ما عنده وهو الشباب.

وقد ختم أبو تمام حديثه عن الشيب بما بدأ به، فقد أصابه الشيب بسبب الهم والحزن الذى ألم به فكانت المناسبة جلية واضحة.

وهذه الأبيات وردت بعد المقدمة الغزلية التى ذكر فيها فراق هذه المرأة وحرنها وبكائها فهى تذرف الدمع من نار الأكباد، فالفراق حال بينه وبينها، ولهذا شاب قلبه بسبب هذه الهموم التى أضعفته، وفى رأيى أن أبيات الشيب مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمقدمة الغزلية فهو يعبر ويصور ما بداخله من أثر

---

(١) ينظر: الشهاب فى الشيب والشباب/ ٥٥.

(٢) اللسان/ ولد، سنن، كبر.

(٣) ينظر: الموازنة٢/ ٢١٥، الشهاب/ ٥٥.

هذا الفراق.

ثم ترى العلاقة وثيقة بين المقدمة الغزلية وأبيات الشيب وغرض القصيدة الذى هو (المدح) فقد انطفأت عند أبى تمام همته فى تحقيق الآمال فقد أصابه الشيب فى قلبه ورأسه وأقعده وكأنه مريض قد زاره العواد فخمدت آماله، ولم يسع إلى تحقيقها، ولكن الذى أخرجه من هذه الحال هو ذهابه إلى هذا الممدوح الذى أشعل عنده زند تحقيق الآمال، ومن هنا كانت العلاقة وثيقة جلية.

وترى حركة المعنى تمتد وتصل إلى ختام القصيدة يقول:

فقد بثثتم غرس المودة والشحـ ∴ ـناء فى قلب كلِّ قارٍ وباد

وكان هؤلاء بثوا المودة والقوة فى قلبه بعد أن أصابه الشيب.

كما أن ذكر لفظ (قلب(قد ناسب ذكر (الفؤاد) ، (القلوب) فى أبيات الشيب.

❁❁❁❁❁

وقال البحترى فى نزول الشيب قبل حينه (من الوافر):

أَقُولُ للمتَّى إذْ أَسْرَعَتْ بِى ∴ إلى الشيبِ اخْسَرِى فِيه وخِيبِى

مُخَالَفَةً بِضَرْبٍ بَعْدَ ضَرْبٍ ∴ وَما أَنَا واخْتِلاَفَات الضُّرُوبِ

وَكانَ جَدِيدُها فِيها غَرِيبًا ∴ فَصَرَ قَدِيمُهَا حَقَّ الغَرِيبِ

البحترى يتحدث إلى لمته، وقد أسرعت به إلى الشيب قبل حينه، فيأمرها أن تضل وتهلك، وأن تخيب فى الطلب، ولكنها خالفت ما يتمنى فهى فى طريقها، فيقول: لا أستطيع أن أقف أمام ضروب الدهر وكان الشيب غريبا على ولكنى تعودت عليه فصار الشباب هو الغريب.

فالبحترى هنا يشخص لمته فجعل منها إنسانا يخاطبه ويتحدث إليه، ويرد عليه، وقوله: (إذا أسرعت إلى الشيب) تعليل وتوضيح لقوله: (أخسرى فيه وخيبى) والتعبير بـ (إذا) للتحقيق والتأكيد فقد انتشر الشيب فى لمته قبل حينه، بدليل قوله (أسرعت) وقدم الجار والمجرور (بى) لإفادة القصر فقد أصابه

وحده دون غيره، فهويتحدث عن نفسه ولهذا جاء بضمير التكلم.

والتعبير بالأمر (اخسرى، خيبى) كأنه يريد أن يقف هذا الشيب فهو بأمرها وكأنها تحت تصرفه، وانظر إلى تقديم (فيه) على خيبى) للدلالة على المحذوف الثانى أى: اخسرى فيه وخيبى فيه وذلك للمحافظة على القافية والوزن، وقد استعار الخسران والخيبة لعدم انتشار الشيب وقد فصل بين جملتى (أقول للمتى، اخسرى فيه..) لشبه كمال الاتصال ووصل بين جملتى (اخسرى فيه وخيبى) للتوسط بين الكمالين.

ثم أن البيت الثانى وثيق الصلة بالبيت الأول، فهو يبين ويوضح أنها لم ولن تستجيب لأمره فيقول: إنها خالفت مخالفة بضرب بعد ضرب.

يقول الآمدى: (وقول البحترى « مخالفةً بضرب بعد ضرب، فى غاية الحسن والصحة والبراعة)[١].

فقد فصل بين هذا البيت والذى قبله لشبه كمال الاتصال وكأن سائلا سأل هل استجابت للأمر فكان الجواب (مخالفةً.. ..) والضرب هنا يناسب الإسراع فى البيت الأول؛ لأنها تواصل السير والإسراع دون توقف ودون انقياد لأمره، وفيه دليل وتأكيد أن الشيب لا يأتى دفعة واحدة، وإنما يأتى على مراحل مختلفة حتى ينتشر فى جميع الرأس.

ولهذا فقد رتب البيت الثالث على الثانى فقد اعتاد البياض بعد أن كان غريبا عليه فصار الشباب هو الغريب حقاً.

يقول الآمدى: (قوله: وكان جديدها فيها غريبا» من قول أبى تمام: « طال إنكارى البياض وإن عمرت شيئا أنكرتُ لون السواد». وبيت أبى تمام أجود)[٢].

حيث أن أبا تمام أنكر وطال إنكاره، والإنكار أشد وأقوى من قبول الشىء وعده غريباً.

---

(١) الموازنة٢/ ٢١٧.

(٢) الموازنة٢/ ٢١٧.

جامعة الأزهر
مكتبة
كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات

وعبر أبو تمام عن الشيب بالبياض وعن الشباب بالسواد لما فى البياض من القبول والراحة والاطمئنان، وفى السواد من النفور والقلق وهذا أجود.

أما البحترى فقد عبر عن الشيب بالجديد، وعن الشباب بالقديم، فهو يريد أن يقول أنه اعتاد الغريب حتى أصبح أنيساً له وقريبا منه، وأنت ترى أن البحترى قد سلم بقبول الشيب، أما أبو تمام فقد طال إنكاره ولهذا كان معناه أجود وأعمق.

❁❁❁❁❁

وقال البحترى [1] (من الكامل):

هَلْ أَنْتَ صَارِفُ شَيْبَةٍ إِنْ غَلَّسَتْ ∴ فى الوقتِ أو عَجَلَتْ عَنِ المِيعَادِ؟
جَاءَتْ مُقَدِّمَةً أَمَامَ طَوَالِعٍ ∴ هَذِى تُرَاوِحُنِى، وتِلْكَ تُغَادِى
وأَخُو الغَبِينَةِ تَاجِرٌ فِى لِمَّةٍ ∴ يُشْرِى جَدِيدَ بَيَاضِهَا بِسَوَادِ
لاَ تَكْذِبَنَّ فَمَا الصِّبَا بِمُخَلَّفٍ ∴ لَهْواً، ولا زَمَنِ الصِّبَا بِمُعَادِ
وأَرَى الشَّبَابَ عَلَى غَضَارَةِ حُسْنِهِ ∴ وَجَمَالِهِ عَدَداً مِنَ الأَعْدَادِ.

البحترى هنا يقرر الحقائق ولا يتعلق بالأوهام يقول: إنَّ الإنسان لا يستطيع أن يصرف الشيب إن جاءه فى وقته أو قبل حينه، فيحكى أوائل شيبه فقد جاءت مقدمة ما بين الرواح والغدو، ثم أنه يخادعه كالتاجر الذى لا يخسر صفقته، ثم يؤكد حقيقة استحالة عود الشباب بعد حلول الشيب، ثم أنه يتحسر على رقة العيش والحسن أيام الشباب فقد كانت أيامه قليلة معدودة.

بدأ البحترى بأسلوب الاستفهام المتضمن معنى النفى فى قوله: (هل أنت صارف شيبه إن غلست.. ..) ودخول هل على الجملة الاسمية تفيد تأكيد

---

(١) الديوان ١٦٣/٢، والأبيات من قصيدة فى مدح الخليفة المعتمد، والموازنة٢/ ٢١٧، غلست: غَلَسَ: دخل فى الغلس أى ظلمة آخر الليل، طوَالِعُ: سهام تصيب الهدف، تراوح: راح فلان يروح رواحا من ذهابه أو سيره بالعشى، وهى نقيض غدا يغدو، اللسان/ روح، الغبينة: الخديعة، لمة: الشعر المجاور الأذن، يشرى: هنا معناها: يبتاع كما حقق المرتضى ونبه على وهم الآمدى فى تفسير يشرى بمعنى يبيع، غضارة: رقة العيش ولينه، عددا من الأعداد: أى زمنا قليلا، والعرب تقول فى الشىء القليل إنه معدود/ هامش الديوان.

Scanned with CamScanner

النفى فى الحالتين سواء حل به الشيب فى حينه أو قبل حينه، فلا يستطيع أن يصرفه أو يقف أمامه، وفضل النفى بأداة الاستفهام (هل) هو أنه مع الاستفهام يطلب من القارئ أن يعود إلى نفسه، وأن يراجع هذه الحقيقة التى دخل عليها الاستفهام وهو لا محال سيقول ليس أنت صارف شيبه، وهو أدل على وثوق الشاعر فى معناه، وأنه معنى يُسلِّم به من يخاطبه. وصور انتهاء الشباب وظهور الشيب بظلمة آخر الليل ودخول النهار بنوره وبياضه، وقوله: (إن غلَّست) حددت الصورة ورسمت معالمها، وقد استمدها من الواقع حوله.

وقد جرد الشاعر من نفسه شخصا آخر يسأله وهو لا يريد الإجابة ولكنه جاء هو بالإجابة فى الأبيات التالية، وكأن البيت الأول هو المعنى الأم الذى أراده الشاعر؛ حيث أكده ووضحه فى الأبيات كلها، فأكد فى البيت الثانى بقوله:

جاءت مُقدمةً أمام طوالع ∴ هذى تراوحنى وتلك تُغادى

شبه حلول (الشيبة) به مسرعة وكأنها أمام سهام قد هاجمته فى الرواح والغدو وقد أصابت الهدف، فتأمل السرعة فى إصابة الهدف والبياض والبريق بين الطرفين، وتحس فى هذه الصورة بالصراع القائم المحتدم وسرعة الملاحقة، والتعبير بالجملة الفعلية تفيد تحقق وقوع الشيب، والتعبير بالمفرد فى جانب الشيب والجمع فى جانب السهام (طوالع) يفيد انتصار الشيب عليه، فلا يستطيع أن يقف أمام هذه السهام التى تهاجمه بالليل والنهار.

وتأمل جمال الالتفات من الخطاب فى قوله (هل أنت) إلى التكلم فى قوله (تراوحنى - تغادى) لدفع السأم والملل الذى هو عليه.

والتعبير بـ (هذى ، وتلك) يشير أن الشيبة تلاحقه من قريب ومن بعيد، أو أن هذه تأتيه بالشيبة وتذهب وتلك تلاحقها بالشيبة أيضاً، فما أن يستفيق من الأولى حتى تلاحقه الأخرى.

ثم يؤكد هذه الصورة بصورة أخرى، وكأنه يلاحقك بالصور كملاحقة

الشيب له.

فصور فى البيت الثالث انتشار الشيب فى لمته وقد خادعه بالتاجر المغبون الذى لا ريب فى خسران صفقته، فقال:

وأخو الغبينة تاجرٌ فى لمة ∴ يشرى جديد بياضها بسواد

والتعبير بـ (أخو الغبينة) يوحى بشدة خداعه ويؤكد سرعة ملاحقة الشيبة له، ولكنه فى هذه الصورة يضيف إليها المخادعة والمداهنة، فيخيل إليك أن لمته محل للبيع والشراء، فقد تسابق هذا التاجر المغبون ليشترى البياض ويبيع السواد، ويضع البياض مكان السواد، وفى هذا تشخيص للشيب وأنه لا مفر منه.

ثم يؤكد هذا المعنى فى البيت الرابع باستحالة رجوع أيام الصبا وتميز هذا البيت بتكرار النفى ثلاث مرات (لا تكذبنَّ، فما الصبا، ولا زمن الصبا) وهذا يؤكد استحالة رجوع الشباب، كما تحس بالتحسر والندم على تولى أيام الشباب.

ولهذا ختم أبياته بمدح أيام الشباب التى تولت سريعة فكانت أياماً معدودة، بقوله:

وأرى الشبابَ على غضارة حُسنه ∴ وجماله عدداً من الأعدادِ

فكانت المناسبة بينه وبين البيت الأول عندما قال: (أو عجلت عن الميعادِ) فيدل على قصر أيام الشباب، وهذا من حسن الترتيب والنظم فى المعانى.

وفى هذه الأبيات تمتزج مفارقات الشيب والشباب بحديث المتأمل المتعقل الذى لا يتعلق بالأوهام، وإنما يقرر الحقائق ويستمد دلائله من الواقع، ثم أنك ترى البحترى يعدل بين توزيعه للجمل الاسمية والفعلية على سطح الأبيات.

وترى تشابها بين هذه الأبيات والأبيات السابقة من حيث النظم والمعانى، فقد صور المقطوعة السابقة - إتيانه الشيب قبل حينه - فانظر

إلى قوله السابق: (مخالفة بضرب بعد ضرب) وقوله هنا: (هذه تراوحنى وتلك تغادى) فالتناسب بينهما فى المعنى واضح حيث الملاحقة والسرعة ومهاجمة الشيب له فى كل وقت.

وقوله: (وكان جديدها فيها غريبا) وقوله هنا (يشرى جديد بياضها بسواد) وعبر فى المقطوعتين بلفظ (اللمة) أقول للمتى، تاجر فى لمتى) فهو يصور لك الشيب فى أوائله؛ حيث تقرير الحقائق والبعد عن المبالغة.

أما أبو تمام فقد اتسمت معانيه وصوره بالمبالغة والفلسفة الحسنة المستقيمة الصحيحة؛ حيث التعمق فى المعانى والصور الجديدة الغريبة ويكفى قول أبى تمام: (وما رأيت مشيب الرأس إلا من فضل شيب الفؤاد).

ثم أنت ترى أبا تمام لم يذكر الحديث عن الشباب كثيراً، وإنما كان يشير إليه فى الكلام، وكان تركيزه على الشيب ونزوله قبل حينه بينما ترى البحترى يركز على الشباب والشيب معاً.

يقول الآمدى فى نهاية هذا الباب: (وقد تصرف البحترى فى هذا الباب تصرفاً حسناً ولولا قول أبى تمام: « فلا يؤرقك إيماض القتيربه» وقوله: (شاب رأسى) والبيتان بعده، لفضلت البحترى عليه فى فتنانه وبراعة لفظه، وسلامة معناه، لكنى أجعلهما متكافئين)[1].

---

(١) الموازنة٢/ ٢٢٠.

المبحث الخامس

البكاء على الشباب والتعزى عنه والعزوف عن الصبا

قال أبو تمام:

أَصْبَحَتْ رَوْضَةُ الشَّبابِ هَشِيماً ∴ وَغَدتْ رِيحُهُ البَلِيلُ سَمُومَا (١).

يصور أبو تمام تولى الشباب عنه بالروضة التى أصبحت هشيماً، وذلك بسبب الريح السموم التى هلت عليها بعد أن كان يهب عليها الريح الطيبة الممطرة.

وبناء هذه الصورة التشبيهية التمثيلية على التخييل، فقد تخيل الشاعر الشباب روضة خضراء جميلة يانعة قد أصابها الريح البليل فأينعت وزهت، وفجأة أصابها الريح السموم فتركها يابسة لا تغنى أحداً حتى تحولت إلى هشيم لا فائدة ولا طائل من ورائه.

وهذا تصوير للفناء ففى تولى الشباب فناء للعمر بلا رجعة ودخول فى مرحلة أخرى من العمر وهى الشيب التى فيها يكون الضعف والهزال وفناء القوة والبهجة والنضارة ولهذا عبر عنها بـ هشيما، سموماً.

وهذا التشبيه يجمع بين الشكل والحركة واللون، فهيئة الإنسان تختلف فى الشباب عن هيئته فى الشيب ، مع مراعاة النشاط والحركة واللون الأسود لشعره فى شبابه ، وعكس هذه المعانى فى شيبه، وهذا ما تتخيله فى الروضة اليانعة الخضراء التى أصابتها الريح البليل فأصبحت هشيما.

وهذا البيت جاء متداخلا فى جملة ولهذا كان لمجموعها صورة خاصة مقررة.

وتجد أبا تمام قد تأثر بألفاظ القرآن الكريم وخاصة بما ورد فى تصوير فناء وزوال الحياة الدنيا بحال النبات أصابه المطر فأينع وزهى حتى تعلق أصحابه به فما لبث أن أصابه ريح باردة فدمرته فأصبح هشيما تذروه

---

(١) شرح ديوان أبى تمام/ ٥٣٥، والموازنة/ ٢٢١، هشيما: النبت اليابس المتكسر، هو يابس كل كلأ، البليل: الريح التى تحمل شيئا من المطر، السموم: الريح الحارة.

Scanned with CamScanner

الرياح.

قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾(١).

وترى أبا تمام صرح بالشباب وكنى عن الشيب بإيجاز بديع كما ترى تعمقه فى معانيه وصوره فتحس بالنغمة الحزينة المؤلمة والندم على ما فات والأيام التى تصرمت ولم يعرف الشاعر إلى عودتها سبيلاً.

وعلاقة المطلع بهذا البيت وغرض القصيدة علاقة وثيقة.

فقد افتتح القصيدة بأسلوب التجريد فقد جرد من نفسه شخصين يتحدث إليهما ويشكو لهما من أرقه بسبب الشوق فهو لا ينام ولا يُنِم من معه.

وبعد ذلك يبكى الأطلال، ويسأل الديار دون جدوى أو دون إجابة منها.

فنجد العلاقة واضحة بين افتتاح القصيدة وبين هذا البيت محل البحث.

أصبحت روضة الشباب هشيما، فالديار أصبحت أطلالاً والشباب أصبح هشيما فكانت المناسبة.

ثم أنه ختم القصيدة بالتوجه إلى الله تعالى بإدامة نعمة الممدوح عليه فقال:

نعمة الله فيك لا أسألُ الله ∴ إليها نُعْمى سوى أن تدوما (٢).

وكأنه يدعو بدوام نعمة الممدوح؛ لأنه لم ينعم بدوام وصل المحبوبة لأن ديارها صارت أطلالاً، ولم ينعم أيضا بدوام الشباب لأنه أصبح هشيماً فكانت المناسبة.

❁❁❁❁❁

كما تجد البحترى تناول المعنى نفسه ولكن بصورة وصنعة مختلفة فقال (من الخفيف):

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٥.

(٢) شرح ديوان أبى تمام/٥٤٠.

خَلَقُ العَيْشِ فى المشيبِ وإنْ كَا ∴ نَ نَضيرًا، وفى الشَّباب جَديدُهْ
لَيْتَ أنَّ الأيَّامَ قَـامَ عَلَيْهـا ∴ مَنْ إذَا مَا انقْضَى زَمَـانٌ يُعيدُهْ
ولَوْ أنَّ البَقَاءَ يَخْـتَارُ فينَـا ∴ كَانَ ما يَهْدمُ اللَّيَالى تَشـيدُهْ
شَيَّبَتْنى الْخُطوبُ الاَّ بَقَايَـا ∴ مِنْ شَبَاب لَمْ يَبْقَ إلاَّ شَـرِيدُهْ
لاَ تُنَقِّبْ عَنِ الصِّبَا فَخَلِيـقٌ ∴ إنْ طَلَبْنَاهُ أنْ يَعزَّ وُجُـودُهْ (١).

الأبيات تعبر عن توجع وشكوى البحترى من الشيب الذى أصابه، فألم به الألم والندم والبكاء على أيام الصبا، وقد ظل يبحث عن وسائل تخلصه من ذلك الواقع الأليم الذى يحياه، فيتمنى أن يقدر على دنيا الأيام، أو أن تتاح للإنسان حرية الاختيار وتلبية الآمال إذاً لأرغم الليالى أن تشيد ما هدمته من عمره وشبابه لكن شيئا من ذلك لن يكون، ومن ثم فإن أحداث الليالى وويلاتها هى عدوه اللدود، فهى التى شيبته وبددت شبابه وطرحت آماله، ومن ثم تنتهى به تلك التوهمات إلى الاصطدام بالواقع المرير، فيصحو من أحلامه مخاطبا وجدانه الممزق بتلك اللهجة الحاسمة (لا تتقب عن الصبا فخليق ∴ أن طلبناه أن يعز وجوده).

تأمل كيف نظم الشاعر هذه المعانى وكيف سبكها، بدأ بجملة خبرية (خلقُ العيش فى المشيب وإن كان نضيرا) فهو يخبرك أنه قد أصابه الشيب وقد تعود عليه وأنه ليس جديداً بل إن الشباب هو الجديد عليه ولو كان المشيب نضيراً أى: حسنا، وقد اشتمل البيت الأول على هذه المعانى فهو جذر للأبيات التى تليه.

ثم أنه يؤكد فى البيت الثانى استحالة رجوع الشباب مرة أخرى باستخدامه (ليت) التى للتمنى وهى فى الشىء المستحيل، وقد استخدمها فى مكانها، فهو لن يستطيع أن يعيد الأيام، ثم يؤكد هذا بالاستفهام (من إذا ما

---

(١) الديوان ٢/٧٥٢/٧٥٣، والموازنة٢/٢٢١، الخلق: بالتحريك: القديم، الخَلَقُ: الكذب وخلق: الإفك، وشىء خَلَقٌ: بال وهو مصدر الأخلق: وهو الأملس، اللسان/ خَلَقٌ. نضر: النضيرة: النعمة والعيش والغنى، وقيل: الحسن والرونق، اللسان/ نضر، تُنَقِّب: نقَّب فى الأرض: ذهب. اللسان/ نقب، خليق: أنه لخليق أن يفعل ذلك، أى: حرىٌّ، أجدر.

انقضى زمان يعيده) الذى يفيد النفى أى: لا أحد يستطيع أن يرجع إلى الوراء ويعيد ما انقضى من الزمان، ثم يؤكد هذا المعنى بأسلوب الشرط (ولو أن البقاءَ يختار فينا كان ما يُهْدِمُ الليالى تشيدُه.

استخدم (لو) التى تفيد امتناع لامتناع أى: امتناع الجواب لامتناع الشرط، ثم يوضح سبب شيبه وما هى إلا الخطوب التى فعلت به ما فعلت وتركت عليه آثارها وهو الشيب فأذهبت عنه الشباب ولا يبقى إلا شريده ، فقد اسند الشيب إلى الخطوب على سبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية والفاعل الحقيقي هو الله تعالى، ولجأ الشاعر إلى الإسناد المجازى لما فيه من الإيجاز والمبالغة.

والمجاز فى (شيبتنى الخطوب) واقع فى إثبات الشيب فعلا للخطوب وهو الذى أزيل عن موضعه الذى ينبغى أن يكون فيه؛ لأن من حق هذا الإثبات – اعنى إثبات الشيب فعلا – أن لا يكون إلا مع أسماء الله تعالى، وأما المثْبَتَ فلم يقع فيه مجاز لأنه الشيب وهو موجود كما ترى[١].

ولهذا فرق الإمام عبد القاهر بين المجاز العقلى والمجاز اللغوى يقول:

(... فاعلم أنه إذا وقع فى الإثبات فهو متلَّقى من العقل ، وإذا عرض فى المُثْبَت فهو متلَّقى من اللغة...) [٢].

ثم أنه يؤكد بطريق النهى تولى أيام الصبا فينهاه أن يفتش عنها فإن طلبناه مرة أخرى فلم تجده أمامك لأن مساعيه سوف تبوء بالفشل.

وأنت ترى أن الأبيات يغلب عليها التأكيد بوسائل شتى وهى الأسلوب الخبرى ثم التمنى، وإن والاستفهام الذى يفيد الإثبات والجملة الشرطية بـ (لو) وأسلوب القصر والنهى الصريح عن التفتيش والبحث عن الصبا الذى يعز وجوده.

ثم ختم الأبيات بما بدأ به وهو استحالة رجوع الشباب مرة أخرى وهذا

---

(١) ينظر / أسرار البلاغة /٣٧١ بتصرف.
(٢) الأسرار /٣٧٣.

ما دارت حوله الأبيات فكانت المناسبة واضحة.

وأنت تجد تشابك المعانى بعضها إثر بعض مع حسن انتقاء الألفاظ الموحية، وترى أيضاً الربط بين شطرى كل بيت من الأبيات وكأن الشرط الثانى بمثابة الدليل والمثل والبرهان على صحة دعوى الشاعر فى الشطر الأول، وهذا ما اتسم به شعر البحترى.

وقد غلب على سطح هذه الأبيات استخدام الشاعر (إنْ) المؤكدة وإنْ الشرطية وقد حُذف جوابها، كقوله: إنْ كان نصيرا - إنْ طلبناه - أن يعز وجوده..

كما ترى جمال المفارقات بين الشيب والشباب التى وضحت المعنى وميزته فى ذهن السامع.

المبحث السادس
الاعتذار عن الشيب

قال البحترى [١](من الخفيف):

رُبَّ عَيْشٍ لَنَا بِرَامَةَ رَطْبٍ ∴ وَلَيَالٍ فِيهَا طِوَالٍ قِصَارِ
قَبْلَ أَنْ يُقْبِلَ المَشِيبُ وَتَبْدُو ∴ هَفَوَاتُ الشَّبَابِ فِي إِدْبَارِ
كُلُّ عُذْرٍ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَلَكِنْ ∴ أَعْوَزَ العُذْرُ مِنْ بَيَاضِ العِذَارِ
كَانَ حُلْواً هَذَا الهَوَى وَأَرَاهُ ∴ صَارَ مُرًّا وَالسُّكْرُ قَبْلَ الخُمَارِ

الشاعر يدرك أن الشيب لابد منه، ولكنه يتمنى أن يتمتع بأيام الشباب القصيرة؛ لأنها تنقضى بسرعة وإن كانت طويلة، « وأن كل ذنب له عذر إلا المشيب فهو ذنب ليس له عذر، وهذا ليس على التحقيق وإنما سماه هنا ذنبا وجعله من جملة الذنوب تجوزا واستعارة، ومن حيث أنه لم يك ذنبا لم يكن عنه اعتذار ولا تتصل»[٢].

بدأ الشاعر أبياته بـ (رُبَّ) التى تفيد التكثير كثيرا والتقليل قليلاً والمعوّل عليه هو السياق، وهنا المراد التقليل لأنه بقدوم الشيب هو يسترجع أيام الشباب التى فاتت، ولك أن تقول أن ما فات صار قليلاً وإن كان كثيراً؛ لأن ما فات مات، وهذا يُغرى بتوجيه الدلالة إلى التقليل [٣].

والتعبير بـ (عيش) كناية عن أيام الشباب وأكد هذا بالوصف (رطب) أى: (رُبَّ عيش رطب) والتنكير أفاد التقليل،أى: أنه أدرك القليل من العيش فى شبابه وإن كان كثيراً.

ثم أنه قدم الجار والمجرور (لنا برامة) لإفادة القصر فالقصر هنا من

---

(١) الديوان ٢/٩٨٦، ٩٨٧، والقصيدة فى مدح أبى جعفر بن حميد، والموازنة٢/٢٢٦.
برامة: موضع، عُذر: جانب اللحية الشعر الذى يحاذى الأذن. الخُمار: صداع الخمر وأذاها وبقية السكر. وقد قصر الآمدي هذا المبحث على البحترى.
(٢) ينظر: الشهاب/ ٧٨.
(٣) ينظر: الشعر الجاهلى دراسة فى منازع الشعراء د/ أبو موسى/٤٤، بتصرف ط١/٢٠٠٨م.

قصر الموصوف على الصفة، فقد قصر الموضع الذى فيه القليل من العيش الرطب على كينونة من يدركه الشيب بعد الشباب.

ثم أكد هذا المعنى فى الشطر الثانى (وليالٍ فيها طوالٍ قصارِ) معطوف على قوله ورب عيش، أى: ورب ليال فيها..) أى: أن ليالى الشباب مع أنها طويلة إلا أنه يحس بقصرها؛ لأنها فاتت وولت ففيها النشاط والفتوة وفيها اللهو وعدم الاكتراث بالهموم، والصفة الغالبة على هذا البيت هو التنكير والجمع (عيش، رطب، ليال، طوال، قصار) فالشاعر يصور ما بداخله من مشاعر وأحاسيس لما اقترب المشيب، ولعل الشاعر ينبه نفسه والآخرين بقدوم الشيب، ويؤكد هذا فى البيت الثانى فهو بمثابة الإيضاح والكشف عن غرض الشاعر فقال:

قبل أنْ يُقبل المشيبُ وتبدو ∴ هفواتُ الشباب فى إدبار

فهو ينتظر ويترقب فى تحسر إقبال الشيب وإدبار الشباب، فترى جمال التشخيص لطريق الاستعارة المكنية فكأن الشيب زائر غير مرغوب فيه، فيترقب وينتظر متى يجئ، ومتى يذهب عنه الزائر غير المرغوب فيه، وفيه إحساس بالحزن والهم وذهاب السرور.

وصرح بالشيب والشباب وعرفهما للإيضاح ولعهده بهما، وحدد المعنى وميزه بالمقابلة بين شطرى البيت، ولهذا عطف جملة (وتبدو هفوات..) على جملة (قبل أن يقبل المشيب) للتوسط بين الكمالين.

ثم تخيل الشاعر أن المشيب ذنب وليس له عذر، فكل ذنب له عذر إلا المشيب، فقال:

كل عذرٍ من كل ذنبٍ ولكن ∴ أعوز العذر من بياض العذار

فجاء لك بقضية عامة وعبر بلفظ (كل) مرتين لإفادة العموم، وعرف (العذر، العذار) لإفادة الخصوص، وقد غلب استخدام مادة (عذر) فى هذا البيت ثلاث مرات (عذر - العذر - العذار) ومع ذلك فالبيت فى غاية الفصاحة والبلاغة، وهذا يؤكد أنه ليس له ذنب فى هذا المشيب وليس هو

الجالب له، وإنما جاءه رغما عنه، وليس له الخيار فى هذا وإن أصابه فهو يعتذر عنه مع أنه ليس ذنبه، وترى الانسجام الصوتى بين هذه الحروف.

ولهذا أكد فى البيت الأخير أنَّ الشيب قد ألم به وهذا تأكيد ورجوع إلى المعنى؛ لأنه تأكد أن الأيام الجميلة قصيرة (أيام الشباب) وإن طالت، ولهذا يختم بقوله: (كان حلوا هذا الهوى) كناية عن هناءته فى أيام الشباب التى عاشها وظفر بها وحقق فيها أمانيه، ولهذا عبر بالماضى (كان) وكأنه كان حلماً.

وقدم الخبر (حلواً) لتأكيد سعادته وهناءته فى أيام الشباب، وعرف (الهوى) باسم الإشارة (هذا) لزيادة الإيضاح والتقرير.

والتعبير (بهذا) التى للقريب مع أن المقام للبعيد الغائب الذى تولى، لتنزيله منزلة الحاضر وكأن هذا (الهوى) شىء محسوس يراه بالعين ويشير إليه ثم أنه شبه (الهوى) (الحب فى أيام الشباب) بالطعام الحلو المذاق وهذا من تراسل الحواس ثم أكد هذا بقوله: (وأراه صار مراً) كناية عن نزول الشيب به فقد شبه بالطعام المر المذاق.

وقوله: (والسكر قبل الخمار) تذييل لتأكيد ما سبق فالسكر فى الخمر يحدث الشعور بالفرح وعدم المبالاة، ثم يلحقه صداع وأذى، وكأن هذا بمثابة المثل فالحب فى الشباب حلو طعمه وفى المشيب مر طعمه.

المبحث السابع
مدح الشيب والتعزى عنه

قال البحترى (من الخفيف):

عَيَّرَتْنِى المشيبَ وَهْىَ بَدتْهُ ∴ فِى عِذَارِى بِالصَّدِّ والاجْتِنَابِ
لاَ تَرَيْهِ عَاراً فَمَا هُوَ بالشَّيْـ ∴ ـبِ وَلَكِنَّهُ جِلاَءُ الشَّبَابِ
وَبَيَاضُ البَازِىِّ أَصْدَقُ حُسْنًا ∴ لَوْ تَأَمَّلْتِ مِنْ سَوَادِ الغُرَابِ[1]

البحترى يوضح موقف هذه المرأة من شيبه فقد عابت عليه وعيرته ولم تكتف بهذا، وإنما قابلته بالصد والاجتناب، ثم هو يدافع عن نفسه بمدح الشيب، وينفى ما ألحقته به بالدليل والبرهان على صحة دعواه فيقول ما هو بالشيب وإنما هو جِلاءُ الشباب، ثم أتى بحجة أخرى فقال: إن البياض يكون محببا فى البازى وأما السواد يكون فى الغراب قبيحا ومنفراً.

بدأ البحترى بالجملة الفعلية (عيرتنى المشيبَ) وخص نفسه بالتعبير عند إضافة ياء المتكلم، فهو يتحدث عن نفسه، وما صدر منها لما رأت الشيب، وهذه الجملة كشفت عن غرض الشاعر وعن المعنى العام للأبيات فهى الجملة الأم.

ثم انتقل الشاعر من أسلوب التكلم إلى الغيبة (وهى بدته فى عذارى بالصد والاجتناب) جملة حالية توضح حالتها بعد أن عيرته بالشيب، وهى مبنية على ما قبلها، وهى سبب للجملة الأولى أو كالنتيجة لها.

وقوله: (لا تريه عاراً فما هو بالشيب) نتيجة لما سبق لقوله: (عيرتنى المشيب.. ..) ولهذا نفى أن يكون الشيب عارا، ثم أكد هذا المعنى بصورة وصنعة بديعة فقال: (ولكنه جلاء الشباب) أى: شبه ظهور الشيب وذهاب الشباب بانجلاء الظلمة وظهور النهار أو جلاء السيف من الصدأ، فقد تخيل أن الشباب ظلمة، وقد انكشفت بظهور البياض أو تخيل أنه صدأ السيف

---

(١) الديوان ١/٨٤، والموازنة٢/ ٢٢٧، والأبيات ضمن قصيدة فى مدح إسماعيل بن شهاب. وقد قصر الآمدي هذا على البحترى .

فذهب عنه الصدأ بالجلاء فأصبح لامعاً.

وأمد هذه الصورة بصورة أخرى، وهى بمثابة البرهان والدليل على صحة دعواه فقال: وبياض البازى أصدق حُسنا ∴ لو تأملت مِنْ سواد الغرابِ.

فاحتج على سبيل التخييل أن البياض فى البازى مرغوب ومحبوب وجميل المنظر، فإذا نظرت إلى لونه جذبك وأعجبك، وهو أحسن ومرغوب فيه من سواد الغراب فلونه منفر ومكروه وهذا حسن تعليل تخييلى.

ويذكر الإمام عبد القاهر الجرجانى هذا البيت تحت المعانى التخيلية فيظن أنه حقا وصدقا وهو على التخييل، ويبين الإمام أن هذه الأوصاف من بياض البازى - وسواد الغراب،ليس هى سبب الفضيلة والنقيصة؛ وظواهر أمور لا تصحح ما قصدوه التهجين والتزيين على الحقيقة، فينفى الإمام عبد القاهر أن يكون البياض أو السواد هو سبب الصد والاجتناب، فليس الإعراض والصد لمجرد اللون الأبيض، وإنما لذهاب بهجائه وإدباره فى حياته، واستدل عبد القاهر على هذا الكلام بأوراق الأشجار ولونها الأصفر فى وقت الخريف فتكرهها وتنفر منها وهى بعينها فى وقت الربيع تزهو وتكثر وتنمو فتقبل عليها وليس لونها ولكن لنمائها وزيادتها والحياة المستفادة [١].

يقول: (وكما لم تكن العلة فى كراهة الشيب بياضه، ولم يكن هو الذى غض عنه الأبصار، ومنحه العيب والإنكار، كذلك لم يحسن سواد الشعر فى العيون لكونه سواداً فقط، بل لأنك رأيت رونق الشباب ونضارته وبهجته وطلاوته، ورأيت بريقه وبصيصه يعدانك الإقبال ويريانك الاقتبال، ويحضرانك الثقة بالبقاء، ويبعدان عنك الخوف من الفناء.. ..)[٢].

ومن نصوص الإمام نفهم أنه لم يستحسن هذه العلة للبحترى لهذه

---

(١) ينظر: الأسرار ٢٦٧-٢٦٩، بتصرف.

(٢) الأسرار/٢٦٩.

الأسباب التى نثرها فى نصوصه.

ويؤكد هذا مرة أخرى فى التعليل التخييلى والتأول فى الصفة فقد ذكر قول ابن المعتز:

قالت كبرتَ وشبتَ، قلت لها :. هذا غبارُ وقائع الدهر.

ويعلق عليه ويقول: (ألا تراه أنكر أن يكون الذى بدا به شيبا، ورأى الاعتصام بالجحد أخصر طريقا إلى نفى العيب وقطع الخصومة، ولم يسلك الطريقة العامية فيثبت المشيب، ثم يمنع العائب أن يعيب، ويُريه الخطأ فى عَيْبه به ويُلزمه المناقضة فى مذهبه، كنحو ما مضى، أعنى كقول البحترى: « وبياض البازى»[١].

وفى هذا ما يوحى بتفضيل عبد القاهر تعليل ابن المعتز على البحترى، وأيضا تفضيل واستحسان تعليل أبى تمام فى قوله:

ولا يؤرقكِ إيماض القتير به :. فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب

حيث يقول: (وهكذا إذا تأولوا فى الشيب أنه ليس بابيضاض الشعر الكائن فى مجرى العادة وموضوع الخلقة، ولكنه نور العقل والأدب قد انتشر، وبان من وجهه وظهر)[٢].

فابن المعتز أنكر الشيب وقال إنه غبار وقائع الدهر، كما أن أبا تمام جحد الشيب أيضاً، وقال إنه ابتسام الرأى، وهذا غير قول البحترى، فقد اعترف بأنه شيب واحتج له وقوى جانبه وأراد أن يرفعه على الشباب[٣].

❁❁❁❁❁

---

(١) الأسرار/٢٨٣.

(٢) الأسرار/٢٨٤.

(٣) ينظر: مدخل إلى كتابى عبد القاهر/١٨٧، ١٨٨.

Scanned with CamScanner

قال البحترى [١] (من الخفيف):

هَا هُوَ الشَّيْبُ لاتَمًا فأفيقِـــى ∴ واتْرُكِيه إنْ كَانَ غَيْرَ مُفيـــقِ
فَلَقَدْ كَفَّ مِنْ عَنَـــاء الْمُعَنَّى ∴ وتَلاَفَى من اشْتِياقِ المَشُـــوقِ
عَذَلَتْنَا فِى عِشْـقِها أمُّ عَمْرٍو ∴ هَلْ سَمِعْتُمْ بِالعَاذِلِ المَعْشُـــوقِ
ورأتْ لِمَّـةً أَلَـمَّ بها الشَّيْـ ∴ ـبُ فَرِيعَتْ مِنْ ظُلْمَةٍ فِى شُـرُوقِ
ولَعَمْرِى لوْلاَ الأقَاحى لأبْصَـ ∴ ـرْتَ أنِيقَ الرِّيَاضِ غَيْرَ أنِيـــقِ
وَسَوَادُ العُيونِ لَوْ لَـــمْ يُكَمَّلْ ∴ بِبَيَاضِ مَا كَانَ بالمَـرْمُـــوقِ[٢]
وَمِزَاجُ الصَّـهْبَاءِ بالماءِ أمْلَى ∴ بِصَـــبوحٍ مُسْتَحْسَـــنٍ وغَبُـوقِ
أىُّ لَيْلٍ يَبْهى بِغَيْرِ نُجُـــومٍ ∴ أوْ سَـــحَابٍ يَنْدى بِغَيْرِ بُـــرُوقِ

استهل الشاعر أبياته بالجملة الاسمية المفتتحة بـ (ها) التى للتنبيه والإشارة ثم عرف الشيب بالضمير (هو) والألف واللام لزيادة الإيضاح والتقرير والتأكيد، فهو يقر ويعترف بالشيب فلا ينكره واسند اللوم إلى الشيب تجوزاً، وإنما هو الذى يلومها على صدها لنزول الشيب به، ثم أنه يأمرها بالإفاقة مما هى فيه من الصد والاجتناب فقال (فأفيقى) فهو يطلب منها سرعة الإفاقة ثم عطف بالواو فى (واتركيه إن كان غير مفيق).

ويبدو أن الشاعر لم يبال بصدها وقطعها، وإنما يخبرها إما أن تفيق مما هى فيه، وإما أن تتركه وشأنه، وزاد من حسن البيت براعة الاستهلال والتصريع، والبيت الأول المحور الأساسى للمعنى الذى أراده البحترى فقد أقر واعترف بالشيب، وطوى فيه صد واجتناب هذه المرأة فى قوله: (فأفيقى) (واتركيه إن كان غير مفيق).

---

(١) الديوان٣/١٤٨١، والأبيات ضمن قصيدة فى مدح أبى نهشل محمد الطوسى، والموازنة٢/٢٢٨.

(٢) وفى رواية (لو لم يكحّل)، المُعَنَّى: عنى بكذا واعتنى به، أنيق: حسن المنظر، وإعجابه إياك، الصَّهْبَاء: الخمر، سميت بذلك للونها، قيل هى التى عصرت من العنب الأبيض، وذلك إذا ضربت إلى البياض، اللسان/ صهب، غَبُوق: الشرب بالعشى، والغَبُوقُ: ما اغتبق وخص بعضهم به اللبن المشروب فى ذلك الوقت، اللسان/ غبق.

ثم يوضح فى الأبيات التالية كيف أصابه الشيب، وكيف هجرته (أم عمرو) ثم يأتى بالحجة تلو الأخرى ليعلل ويوضح مدحه للشيب فهو ليس عيباً فتراه يؤكد فى البيت الثانى أن الشيب كفها عن الاعتناء به، ثم يصرح بأنها عزلته فى عشقها ولهذا يتعجب بطريق الاستفهام الذى يثير الإنكار والتعجب بقوله: (هل سمعتم بالعاذل المعشوق) فيكيف تكون عاشقة له وقد عذلته فهذا لم يسمع به.

ويصور فى البيت الرابع الشيب وقد أصاب لمته بالظلمة التى تراها فى وسط الشروق فقد تخيل أن الشيب هو الشروق والشباب هو الظلمة، ومن المفترض أن الشروق يسر النفس وتميل إليه وترتاح له؛ حيث النور والتفاؤل والراحة والجمال والاهتداء، أما الظلمة فهى عكس هذا، وهذا من حسن التعليل، وقد راعى البحترى اللون كما فى المواضع السابقة (وبياض البازى) وكما قال الإمام عبد القاهر: ليس اللون فقط الذى ينبغى أن ينظر إليه، وإنما ينظر إلى المعانى اللطيفة الأخرى وهى ذهاب بهجائه وإدباره فى حياته.

ويسترسل البحترى تعليلاته الحسنة فيقول:

ولعمرى لولا الأقاحى لأبصـــر ∴ ت أنيق الرياض غير أنيقِ

أى: لولا رؤية الزهور البيضاء الجميلة فى الرياض لكان غير أنيق، وهذا من التشبيهات الضمنية؛ حيث أنه يشبه الشيب وقد زين رأسه بنور الأقاحى التى تزين الأشجار، وقد راعى البحترى هنا اللون والجمال والحسن، وكأنه يقول لها: انظرى إلىَّ وقد تزينت بالشيب الذى زادنى نوراً وجمالاً وهذا من حسن التعليل.

ثم يؤكد هذا بتعليل آخر يقول:

وسواد العيون لو لم يكمَّل ∴ ببياض ما كان بالمرموق

أى: أن الشيب مع السواد كطبيعة لون العيون وهو اختلاط السواد بالبياض.

وهذا دليل وبرهان على صحة دعواه والغرض بيان جماله وحسنه وقد أصابه الشيب فهو يمدح الشيب الذى هو سبب فى تزينه وحسنه وليس عيبا ولا عاراً كما ادعت عليه الحسناوات.

وزاد من جمال التشبيه فى هذا البيت أنه قلب الحقيقة وأقنعك بها ففى رواية (وسواد العيون لو لم يكحل ببياض ما كان بالمرموق) فالأصل أن تكحل العيون بالسواد ليظهر سوادها وجمالها ولكنه هنا كحل بالبياض؛ لأن السواد كثير وهو الظاهر فكان احتياجه إلى البياض أتم لتزيين هذا السواد ليتم وجه الشبه بين المشبه والمشبه به.

وانتفاء الجزاء (ما كان بالمرموق) لانتفاء الشرط (لو لم يكحل) فقد ثبت جمال العيون لإثبات اختلاط السواد بالبياض وليس المراد من الشرط بـ (لو) هنا امتناع الامتناع، وإنما هو الإثبات بدخول النفى عليها؛ لأن نفى النفى إثبات.

ثم يأتى بتعليل ثالث يقول:

ومِزاجُ الصهباءِ بالماءِ أمْلَى ∴ بصبوحٍ مستحسنٍ وغَبُوقِ

قصد الشاعر هنا أنه عندما يختلط الماء بالخمر ويشربها بالليل فلا تذهب بعقله، فيأتى عليه النهار (الصباح ببياضه المستحسن).

أو أنه أراد تشبيه اختلاط الخمر الحمراء والماء بالصباح وقد دخله وقت العشى أو وقت الغروب.

ثم يختم بتعليلين يقول:

أى ليلٍ يبهى بغير نجوم ∴ أو سحابٍ يَنْدى بغير بُرُوقِ

وبدأ بالاستفهام بدلالة النفى أى: ليس هناك ليل يبهى بغير نجوم أو سحاب يندى بغير بروق فهذه حقائق مسلم بها لا جدال فيها، وهذا التعليل من أوضح التعليلات التى عرضها البحترى، فقد تناولها كثير من الشعراء.

وقد راعى الشاعر اللون الأسود مع الأبيض الذى يرمز للشيب والشباب فالنجوم وهى البيضاء المنيرة التى يرمز بها إلى الشيب والليل

الأسود الذى يرمز به إلى الشباب، فهو يشبه ظهور الشيب وسط الشعر الأسود بالليل الذى ظهرت فيه نجومه اللامعة البيضاء، وشبهه مرة أخرى بالسحاب المظلم وقد ظهر فيه البرق الأبيض اللامع، فلم يراع اللون فحسب وإنما لاحظ فى هذه التشبيهات الضمنية معان لطيفة أخرى وهى الحسن والجمال والنور والعطاء.

ثم أنه عطف بين هذه التعليلات بالواو للتوسط بين الكمالين.

يقول الآمدى: (هذا إنما يخرجه الشاعر وأشباهه مخرج النادر فيستحسن)[1].

وقد ذكر الآمدى أن البحترى أخذ قوله: (أى ليل يبهى بغير نجوم) من قول الآخر:

أشيب ولم أقض الشباب حقوقهُ ∴ ولم يمض من عهد الشباب قديمُ.

تفاريق شيب فى السواد لوامعٌ ∴ ومـــا خيرُ ليل ليس فيه نجومُ

وأنت ترى أن المعنى واحد، ولكن مع اختلاف الصنعة والصياغة.

فالبحترى بدأ بالاستفهام (أى) الذى يفيد النفى، أى: ليس هناك ليل يبهى بغير نجوم، وبهذا يعطى مساحة للمتلقى أن يتأمل وينظر وكأنه يريد الإجابة منه مع أن الإجابة واضحة وضوح الشمس، ولكنه يلفت نظر المخاطب إلى هذه الصورة البديعة لكى يتأمل جمالها وحسنها، ويربط بينها وبين المشبه بعقله وحسه، وعبر عن هذا بطريق التشبيه الضمنى، فقد طوى التشبيه طيا ولم يصرح به، وأتى بهذا المعنى فى شطر البيت بقليل من الألفاظ، ثم أنه عبر بـ (يبهى) بدلا من خير مثلاً لبيان الجمال والزينة فى هذه الصورة، أما قول الآخر فقد أتى بالمعنى فى البيت كله، وصرح بالشيب والشباب ثم أنه ذم الليل الذى ليس فيه نجوم؛ حيث نفى الخيرية عن الليل الذى لم تظهر نجومه، وفى رأيى أن صنعة البحترى أجود وأبلغ حيث الإيجاز والتصوير الذى تصدر بالاستفهام.

---

(١) الموازنة٢/٢٢٨.

وقال آخر فى مدح الشيب:

لا يرُعك المشيبُ يا ابنة عبد اللـــ ∴ ـــه فالشيب حليةٌ ووقَارُ

إنما تَحْسن الريـــاضُ إذا مـــا ∴ ضحكت فى خلالها الأنوارُ

وهذا المعنى شبيه بقول البحترى (ولعمرى لولا الأقاحى لأبصرت أنيق الرياض غير أنيق)

مع اختلاف الصنعة والتصوير، فالبحترى يصور بطريق التشبيه الضمنى الذى طواه تحت هذا المعنى، ثم أنه يؤكد هذا التعليل والحجة بالقسم ولولا الشرطية، وصرح بالأقاحى (الزهر الأبيض) والتعبير به أنسب وأتم للمعنى فهو قريب الشبه بالشيب.

وعبر الآخر عن هذا المعنى بقوله: (ضحكت فى خلالها الأنوار) فلفظ الضحك متداول ومعروف لدى الشعراء، أما صياغة البحترى فهى جديدة وأتم للمعنى وآنق، ومناسبة للصورة التي أرادها.

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى نتائج من أهمها:

[١] اتحاد أجزاء الكلام ودخول بعضه فى بعض؛ وقد بينت هذا الدراسة بالاستنباط والتحليل من خلال علاقة مطالع القصائد بالغرض وعلاقتهما بالشيب والشباب وبالخاتمة، وهو من أدق مباحث لغة الشعر والأدب؛ لأنه بحث فى صميم البناء اللغوى وليس البناء اللغوى إلا الصورة اللفظية أو الصوتية لبناء المعانى.

[٢] اختلاف الصنعة والتصوير عند الشاعرين:

مع أن سبك أبى تمام وأبى عبادة بينهما شبها قوياً، فكل منهما ذكر المعنى ثم يرجع إليه، وهذا الرجوع يختلف، فصنعة أبى تمام فى كثير من الأحيان تبنى على استخراج العلل كلما انتقل من بيت إلى الآخر، وهذا من الفلسفة والتعمق فى استخراج المعانى.

أما البحترى يرجع إلى المعنى ليستخرج صورة ثم يعود ليستخرج أخرى وهكذا، وفرق بين استخراج المعانى الفلسفية واستخراج الصور والمعانى الشعرية.

[٣] غلب عند أبى تمام الانتقال من الخصوص إلى العموم، وهذا من براعة السبك، أن يجعل الشاعر المعنى الأعم ملحقاً بالمعنى الأخص وداخلا فى حيزه، وقد ورد هذا فى قوله: شاب رأسى وما رأيت.. .. وقوله: وكذاك القلوب فى كل بؤس.

[٤] أكثر الشاعران من استخدام أسلوب الشرط بـ (إن ، إذا، لو) الذى يعتمد على البرهان والدليل التأكيد، كما غلب عندهما استخدام الجمل الفعلية الماضية؛ لأن الحديث والمقام للشباب الذى تولى ومضى والشيب الذى أتى وألم بهما.

[٥] اختلاف الشاعرين فى وصف الشيب، فأبو تمام وافق الحساوات على كره وذم المشيب فى كثير من المواضع، وكأنه يلتمس لهن العذر على الهجر والبعد فهو القائل:

يضحكن من أسف الشباب المدبر ∴ يبكين من ضحكات شيب مقمر

والقائل: لو رأى الله أن للشيب فضـــلا ∴ جاورته الأبرار فى الخلد شيبا

بينما تجد البحترى يرفع من شأن الشيب، وأنه رجاحة العقل وجلاء السيف وبياض البازى، وأورد لنا معانى كثيرة على سبيل التعليل والبرهان لبيان مكانة الشيب من نفسه، كما أنه أورد صوراً من حسن التعليل للشيب ليست بالقليلة.

فهو القائل: وحملت عندك ذنب المشيب ∴ حتى كأنى ابتدعت المشيبا

وقوله: وأرى الشباب على غضارة حسنه ∴ وجماله عدداً من الأعداد

وقوله: وبياض البازى أصدق حسناً ∴ لو تأملت من سواد الغراب

وقوله: أى ليل يبهى بغير نجوم ∴ أو سحاب يندى بغير بروق

[٦] غلب عند أبى تمام التعبير عن الشباب والشيب بطريق غير مباشر، فلم يصرح فى كثير من المواضع بهما، وإنما كان يذكرهما بطريق الفحوى، وهذا يؤكد تعمقه وفلسفته فى المعانى، وهذا ما تميز به سبك أبى تمام؛ بينما تجد البحترى يصرح بهما فى كثير من المواضع ولهذا تميز أسلوبه بالوضوح والسهولة فكانت صوره مباشرة لا تحتاج إلى كثير من العناء وهذا ما تميز به سبك البحترى.

التوصيات:

أوصى الباحثين بالدراسة الواعية المتأنية لكل باب ورد فى كتاب « الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى» للآمدى، فهو يشتمل على ثروة علمية هائلة لا يمكن إغفالها أو التغاضى عنها؛ لأن هذا من تراثنا الذى نعتز به ونستنشق فيه عبير أصول العلوم العربية التى بها نزل القرآن الكريم.

هذا.. .. وضراعتى إلى الله ﷻ أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه.. اللهم منك الرشد فأرشدنا، ومنك الهدى فاهدنا، اللهم آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا، فله الحمد فى الأولى والآخرة.

وصلى اللهم على نبينا وحبيبنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الباحثة

Scanned with CamScanner

المصادر والمراجع

١- **أساس البلاغة** للزمخشرى دار صادر - بيروت ط ١ / ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

٢- **أسرار البلاغة** - عبد القاهر الجرجانى، تعليق - محمود محمد شاكر - دار المدنى بجدة، ط ١/ ١٤١٢هـ -١٩٩١م.

٣- **أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط (إنْ وإذا ولو)** ومواقعه فى القرآن الكريم - د/ محمود موسى حمدان - مكتبة وهبة ط١/ ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٤- **أمالى المرتضى** بحث فى المنهج والنقد والتأويل - د/ ثائر عبد الزهرة لازم البصير - دار الينابيع - سوريا - دمشق ط١/٢٠٠٩م.

٥- **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة** أ/ عبد المتعال الصعيدى - مكتبة الآداب ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.

٦- **البرهان فى علوم القرآن** للزركشى تحقيق أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية - بيروت.

٧- **التصوير البيانى** د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ط٤.

٨- **خصائص التراكيب** دراسة تحليلية لمسائل علم البيان - د/ محمد أبوموسى - مكتبة وهبة ط٤ - ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٩- **دلائل الإعجاز** - عبد القاهر الجرجانى - علق عليه أبو فهر - محمود محمد شاكر - مكتبة الخانجى.

١٠- **دلالات التراكيب دراسة بلاغية** د/ محمد أبو موسى - مكتبة وهبة ط٢ ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

١١- **ديوان البحترى** تحقيق وشرح/ حسن كامل الصيرفى ط٣/ دار المعارف.

١٢- **الرمزية عند البحترى** د/ موهوب مصطفاى - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٤٠١هـ -١٩٨١م.

١٣- **شرح ديوان أبى تمام** شرح: إيليا الحاوى - دار الكتاب اللبنانى - بيروت ط١/ ١٩٨١م.

١٤- **شروح التلخيص** - دار السرور - بيروت - لبنان.

١٥- **شعر أبى تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد** د/ سعيد مصلح السريحى ط١ ١٤٠٤هـ -١٩٨٣م، كتاب النادى الأدبى الثقافى.

١٦- **الشعر الجاهلى** - دراسة فى منازع الشعراء د/ محمد أبو موسى - مكتبة وهبة

ط ١ ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م.

١٧- الشهاب فى الشيب والشباب للشريف المرتضى أبى القاسم علـى بـن الحسـين ٣٥٥هـ -٤٣٦هـ - دراسة وتحقيق د/ وليد محمد السراقبى - ٢٠٠٩م الهيئة العامة السورية للكتاب - إشراف عام د/ على القيم.

١٨- العمدة فى محاسن الشعر وادابه ونقده- تأليف أبى الحسن بن رشيق القيروانـى - ٣٩٠- ٤٥٦هـ ١٠٠٠-١٠٦٤م.

١٩- الغموض فى شعر أبى تمام د/ سيد محمد ديب ط١/ ١٤١٠هـ -١٩٨٩م، دار الطباعة المحمدية.

٢٠- قراءة فى الأدب القديم د/ محمد أبو موسى ط٢ /١٤١٩هـ، مكتبة وهبة

٢١- لسان العرب لابن منظور - دار صادر - بيروت.

٢٢- مدخل إلى كتابى عبد القاهرة الجرجانى - د/ محمد أبو موسـى ط١ - مكتبـة وهبة.

٢٣- مراجعات فى الدرس البلاغى د/ محمد أبو موسـى ط٢ ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م، مكتبة وهـبة.

٢٤- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصـناعتها- عبدالله الطيب- دار الفكر - بيروت لبنان.

٢٥- مطارحات الشيب والشباب فى شعر البحترى د/ أحمد عبد الغفار عبيد - بحـث منشور فى حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية.

٢٦- معانى التراكيب د. عبدالفتاح لاشين - دار الطباعة المحمدية / ١٩٨٢م.

٢٧- الموازنة بين الشعراء أبحاث فى أصول النقد وأسرار البيان، تأليف زكي مبارك - ط ٣ - ١٣٩٣هـ -١٩٧٣م، مطبعة الحلبى - القاهرة.

٢٨- الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى لأبى القاسم الحسن بـن بشـر الآمـدى ٣٧٠هـ - تحقيق السيد أحمد صقر ط ٥/ دار المعارف ١٩٩٤م.

٢٩- موسيقى الشعر العربى - مشروع دراسة علمية - د. شكرى محمـد عيـاد دار المعرفة ، ط٢ سنة ١٩٧٨م.

٣٠- نقد الموازنة بين الطائيين أبى تمام والبحترى ١٩٨٢م، د/ محمد رشاد محمـد صالح - المركز العربى للصحافة.

Scanned with CamScanner